أعمال القلوب

أو

المقامات والأحوال

لشيخ الإسلام

تقي الدين أحمد بن تيمية

(٣٦٠هـ)

وقد طبع من قبل باسم «التحفة العراقية في الأعمال القلبية»

تم التحقيق بمعرفة الدار

دار الصحابة للتراث بطنطا

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

دار الصحابة للتراث بطنطا
للنشر - والتحقيق - والتوزيع
شارع المديرية - أمام محطة بنزين التعاون
ت: ٣٣١٥٨٧ ص.ب ٤٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق :

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، أرسله الله بالهدى ودين الحق ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ .

﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم ، الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾ .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما** ﴾ .

وبعد :

فبين أيدينا كتاب قيم لعالم فاضل وحافظ جليل ألا وهو شيخ الإسلام ابن تيمية يتناول فيه بعض أعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله ، والتوكل على الله ، وإخلاص الدين له ، والشكر له ، والصبر على حكمه والخوف منه ، والرجاء له ، وما يتبع ذلك من أعمال القلوب ، وبيان مقامات الناس فيها وأحوالهم ، رداً بذلك على بعض الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة مثل الحلولية والقدرية والصوفية ، وذلك بأسلوبه العلمى الواضح القائم على اتباع الكتاب والسنة بعيدًا على المذهبيات والتقاليد التى لا تستند إلى دليل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ذلك هو سر النور الذى يشع من كتاباته رحمه الله تعالى وهذا الكتاب خير دليل على ذلك ، فدونك هذا الكتاب ففز به .

منهج العمل فى الكتاب :

١ – فقد قابلنا المخطوطة على طبعة المطبعة السلفية فما وجدناه مختلفاً عن طبعة السلفية وموافقاً لطبعة مجموع الفتاوى وضعناه بين معكوفتين وما زاد من المخطوطة على الطبعتين اثبتناه بين معكوفتين وأشرنا إليه أنه زيادة من المخطوطة .

٢ – قمنا بعزو الآيات القرآنية إلى أماكنها فى المصحف الشريف .

٣ – قمنا بتخريج الآحاديث النبوية المرفوعة وغزوناها إلى مصادرها مع تبيين صحة الحديث من ضعفه وذلك من كلام العلماء ، ولم يكن قصدنا فى هذا الكتاب التوسع فى التخريج بصورة كبيرة .

٤ – قمنا بعمل عناوين توضيحية لتيسر للقارىء مهمته ووضعناها بين معكوفتين .

وأخيراً نسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا الكتاب الإسلام والمسلمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصف مخطوطة كتاب « أعمال القلوب » .

عثرنا بفضل الله تعالى على مخطوط هذا الكتاب الطيب فى دار الكتب المصرية العامرة . ويقع المخطوط تحت رمز تصوف تيمور برقم (٢٧١) ومنه نسخة ميكروفيلمية برقم (٢٦٧٦٥) .

عدد صفحات المخطوط (٣٧) صفحة ، فى كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً وقد كتبت المخطوطة بخط جيد .

الناشر

أبو حذيفة

إبراهيم بن محمد



بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
قاعدة في المحبة ... لقليتها يعرف
بالتحفة العراقية ... شيخ الإسلام ومفتي الأنام
فريد دهره ووحيد عصره نقيبة المجتهدين قدوة المحققين تاج العارفين لسان المتكلمين
تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني رفع الله في الثقلين
ذكره وأعلى في الدارين قدره وغفر لنا وله ولجميع المسلمين . الحمد لله نستعينه ونستغفره
ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن
يضلل فلا هادي له ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله
صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً ... وبعد فهذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب التي
قد تسمى المقامات والأحوال وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين مثل محبة الله ورسوله
والتوكل على الله وإخلاص الدين له والشكر له والصبر على حكمه والخوف منه والرجاء له وما يتبع
ذلك اقتضى ذلك بعض من أوجب الله حقه من أهل الإيمان واستكتبها وكل منا عجلان
هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق المأمورين في الأصل
باتفاق أئمة الدين والناس فيها على ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات
ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات فالظالم لنفسه العاصي بترك مأمور أو فعل محظور
والمقتصد المؤدي للواجبات والتارك للمحرمات والسابق بالخيرات المتقرب بما يقدر عليه من
واجب ومستحب والتارك للمحرم والمكروه وإن كان كل من المقتصد والسابق قد تكون له ذنوب
تمحى عنه إما بتوبة والله يحب التوابين ويحب المتطهرين وإما بحسنات ماحية وإما بمصائب
مكفرة وإما بغير ذلك وكل من الصنفين المقتصدين والسابقين من أولياء الله فإن أولياء الله
هم الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا
وكانوا يتقون فحد أولياء الله هم المؤمنون المتقون ولكن ذلك ينقسم إلى عام وهم المقتصدون
وخاص وهم السابقون وإن كان السابقون على درجات كالأنبياء والصديقين وقد ذكر
النبي صلى الله عليه وسلم القسمين في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة
وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه
فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي
يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني
لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره
مساءته ولا بد له منه وأما الظالم لنفسه من أهل الإيمان ففيه من ولاية الله بقدر إيمانه

ونقواه كامعه من ضد ذلك بقدر فجوره اذ الشخص الواحد قد يجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب والسيئات المقتضية للعقاب حتى يمكن ان يثاب ويعاقب وهذا قول جميع اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وايمة الاسلام واهل السنة والجماعة الذين يقولون انه لا يخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان واما القايلون بالتخليد من الخوارج والمعتزلة القايلون بانه لا يخرج من النار من دخلها من اهل القبلة وانه لا شفاعة للرسول ولا لغيره في اهل الكباير لا قبل دخول النار ولا بعدها فعندهم لا يجتمع في الشخص الواحد ثواب وعقاب وحسنات وسيئات بل من اثيب لم يعاقب ومن عوقب لم يثب ودلايل هذا الاصل من الكتاب والسنة واجماع سلف الامة كثيرة ليس هذا موضعه قد بسطناه في مواضعه ويبنى عليه امور كثيرة ولهذا من كان معه ايمان حقيقي فلا بد ان يكون معه من هذه الاعمال بقدر ايمانه وان كان له ذنوب كما روى البخاري في صحيحه من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان رجلا كان يدعى حمارا وكان يضحك النبي صلى الله عليه وسلم وكان يشرب الخمر فيجلده النبي صلى الله عليه وسلم فاتي به مرة فقال رجل لعنه الله ما اكثر ما يوتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله ○ فهذا يبين ان المذنب بالشرب وغيره قد يكون محبا لله ورسوله وحب الله ورسوله اوثق عرى الايمان كما ان العابد الزاهد قد يكون لما في قلبه من بدعة او نفاق مسخوطا من ذلك الوجه عند الله ورسوله كما استفاض في الصحاح وغيرها من حديث امير المومنين علي بن ابي طالب وابي سعيد الخدري وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه ذكر الخوارج فقال يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراته مع قراتهم يقراون القران لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية اينما لقيتموهم فاقتلوهم فان في قتلهم اجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيمة لان ادركتهم لاقتلنهم قتل عاد ○ وهولاء قاتلهم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع امير المومنين علي بن ابي طالب بامر النبي صلى الله عليه وسلم وقال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين يقتلهم ادنى الطايفتين الى الحق ولهذا قال ايمة الاسلام كسفين الثوري وغيره ان البدعة احب الى ابليس من المعصية لان البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها ومعنى قولهم ان البدعة لا يتاب منها ان المبتدع الذي يتخذ دينا لم يشرعه الله ورسوله قد زين له سوء عمله فراه حسنا فهو لا يتوب ما دام يراه حسنا لان اول التوبة العلم بان فعله سيئ ليتوب منه او بانه ترك حسنا مامورا به امر ايجاب او امر استحباب ليتوب فيفعله فما دام يرى فعله حسنا وهو سيئ في نفس الامر فانه لا يتوب ولكن التوبة ممكنة وواقعة بان يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى سبحانه وتعالى من هداه من الكفار والمنافقين وطوايف من اهل البدع والضلال وهذا يكون بان يتبع

من الحق ما علمه فمن عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى واتاهم تقواهم وقال تعالى ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم واشد تثبيتا واذا لاتيناهم من لدنا اجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما وقال تعالى يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وامنوا برسوله يوتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم وقال تعالى قد جاءكم من الله ... وليّ الذين امنوا يخرجهم من الظلمات الى النور وقال تعالى قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم ○ وشواهد ذلك كثيرة في الكتاب والسنة وكذلك من اعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه متبعا لهواه فان ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح كما قال تعالى فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين وقال تعالى في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا وقال تعالى واقسموا بالله جهد ايمانهم لين جاءتهم اية ليومنن بها قل انما الايات عند الله وما يشعركم انها اذا جاءت لا يومنون ونقلب افيدتهم وابصارهم كما لم يومنوا به اول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون وهذا استفهام نفي وانكار اي وما يدريكم انها اذا جاءت لا يومنون وانا نقلب افيدتهم وابصارهم كما لم يومنوا به اول مرة وعلى قراءة من قرا انها بالكسر يكون جزما بانها اذا جاءت لا يومنون ونقلب افيدتهم وابصارهم كما لم يومنوا به اول مرة ولهذا قال من قال من السلف كسعيد بن جبير وغيره ان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وان من عقوبة السيئة السيئة بعدها وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الى البر وان البر يهدي الى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا واياكم والكذب فان الكذب يهدي الى الفجور وان الفجور يهدي الى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الصدق اصل يستلزم البر وان الكذب اصل يستلزم الفجور وقد قال تعالى ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم ولهذا كان بعض المشايخ اذا امر بعض متبعيه بالتوبة واحب ان لا ينفره ويتعب قلبه امره بالصدق ولهذا يكثر في كلام مشايخ الدين وايمته ذكر الصدق والاخلاص حتى يقولون قل لمن لا يصدق لا يتبعني ويقولون الصدق سيف الله في الارض ما وضع على شيء الا قطعه ويقول يوسف بن اسباط وغيره ما صدق الله عبد الا صنع له وامثال هذا كثير والصدق والاخلاص [illegible] حقيقة تحقيق الايمان والاسلام فان المظهرين للاسلام ينقسمون [illegible]

مطلب الصدق

ان الصدق ...

بسم الله الرحمن الرحيم

[قال شيخ الإسلام ومفتى الأنام فريد دهره ووحيد عصره بقية المجتهدين ، قدوة المحققين ، تاج العارفين ، لسان المتكلمين ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى ، رفع الله فى الثقلين ذكراه ، وأعلا فى الدارين قدره ، وغفر لنا وله ولجميع المسلمين](١)

[**مقدمة المصنف**]

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

أما بعد : فهذه كلمات مختصرات فى أعمال القلوب - التى قد تسمى « المقامات والأحوال » - وهى من أصول الإيمان ، وقواعد الدين ؛ مثل محبة الله ورسوله ، والتوكل على الله ، وإخلاص الدين له ، والشكر له ، والصبر على حكمه ، والخوف منه ، والرجاء له ، وما يتبع ذلك . اقتضى ذلك بعض من أوجب الله حقه من أهل الإيمان ، واستكتبها وكل منا عجلان .

أعمال الأبدان

[الظالم لنفسه - المقتصد - السابق بالخيرات]

فأقول : هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق - المأمورين فى الأصل - باتفاق أئمة الدين ، والناس [فيها] على « ثلاث درجات » كما هم فى أعمال الأبدان على « ثلاث درجات » (١) ظالم لنفسه ، (٢) ومقتصد ، (٣) وسابق بالخيرات .

فالظالم لنفسه : العاصى بترك مأمور أو فعل محظور .

---

(١) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط ليس موجوداً فى الطبعتين .

والمقتصد : المؤدى الواجبات والتارك المحرمات .

والسابق بالخيرات : المتقرب بما يقدر عليه من فعل واجب [ومستحب] والتارك للمحرم والمكروه . وإن كان كل من المقتصد والسابق قد يكون له ذنوب تمحى عنه : [**إما**] **بتوبة** – والله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

وإما بحسنات ماحية ، وإما بمصائب مكفرة ، وإما بغير ذلك .

وكل من الصنفين المقتصدين والسابقين من أولياء الله الذين ذكرهم فى كتابه بقوله : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾(٢) [**فحد**] أولياء الله : هم المؤمنون المتقون ، ولكن ذلك بنقسم : إلى « عام » ، وهم المقتصدون و « خاص » وهم السابقون ، وإن كان السابقون هم أعلى درجات كالأنبياء والصديقين .

وقد ذكر النبى ﷺ « القسمين » فى الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « يقول الله من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجاله التى يمشى بها ، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه . وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه »(٣) .

---

(٢) سورة يونس : الآية ٦٢ .

(٣) أخرجه البخارى [١١/٣٤٠ – ٣٤١ / فتح] وأبو نعيم فى الحلية [١/٤] والبيهقى فى الكبرى (١٠/٢١٩) وفى الزهد [٦٩٦] وفى الأربعين الصغرى [٣٤] والبغوى فى « شرح السنة (٥/١٩) والذهبى فى الميزان (١/٦٤١) من طريق خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثنى شريك بن عبد الله بن أبى نمر ، عن عطاء عن أبى أبى هريرة .

بدون هاتين الزيادتين (فبى يسمع وبى يبصر وبى يمشى) (ولا بدله منه) . —

وأما الظالم لنفسه من أهل الإيمان : فمعه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه ، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره [إذ الشخص] الواحد قد يجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب ، والسيئات المقتضية للعقاب ، حتى يمكن أن يثاب ويعاقب ، وهذا قول جميع أصحاب رسول الله ﷺ ، وأئمة الإسلام وأهل السنة والجماعة الذين يقولون : إنه لا يخلد فى النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وأما القائلون بالتخليد : **كالخوارج**(٤) **والمعتزلة**(٥) القائلين أنه لا يخرج من النار من دخلها من أهل القبلة ، وأنه لا شفاعة للرسول ولا لغيره فى أهل الكبائر ، لا قبل دخول النار ولا بعده ؛ فعندهم لا يجتمع فى الشخص الواحد ثواب وعقاب ؛ وحسنات وسيئات . بل من أثيب لا يعاقب ، ومن عوقب لم يثب . ودلائل هذا الأصل من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة كثير ليس هذا موضعه وقد بسطناه فى مواضعه .

=فأما الأولى فقال الشيخ الألبانى فى صحيحته (١٩١/٤) : قد ذكرها الحافظ – يعنى ابن حجر فى الفتح – فى أثناء شرحه للحديث نقلاً عن الطوفى ولم يعزها لأحد . أما الثانية : أخرجها أبو نعيم فى الحلية (٣٢/٤) من طريق إبراهيم بن الحكم : حدثنى أبى : حدثنى وهب ابن منبه قال :

« إنى لأجد فى بعض كتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إن الله تعالى يقول : ما ترددت عن شيء قط ترددى عن قبض روح المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مسّاءته ولابدّ له منه » قال الشيخ الألبانى فى صحيحته (١٩٠/٤) : وإبراهيم هذا ضعيف ، ولو صح عن وهب فلا يصلح للشهادة لأنه صريح فى كونه من الإسرائيليات التى أمرنا بأن لا نصدق بها ولا نكذبها .

(٤) الخوارج : هم الذين خرجوا على الإمام علىّ رضى الله عنه إبان التحكيم ، وقالوا : « إن الحكم إلا لله » أى لا حكم ولا تحكيم إلا لله ، وسموا أنفسهم الشراة وانقسموا إلى أربع فرق : النجدية ، والصفرية ، والإباضية والأزارقة وانقسمت كل فرقة إلى فرق متعددة .

انظر : الفرق بين الفرق ت محمد محى الدين عبد الحميد .

(٥) المعتزلة : فرقة من المتكلمين يخالفون أهل السنة فى بعض المعتقدات ، على رأسهم واصل بن عطاء الذى اعتزل بأصحابه حلقة الحسن البصرى .

وينبني على هذا أمور كثيرة ، ولهذا من كان معه إيمان حقيقى فلابد أن يكون معه من هذه الأعمال بقدر إيمانه ، وإن كان له ذنوب .

كما روى البخارى فى صحيحه عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – « أن رجلا كان [يسمى][6] حماراً ، وكان يضحك النبى ﷺ . وكان يشرب الخمر ، ويجلده النبى ﷺ ، فأتى به مرة فقال رجل لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ : لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله »[7] .

فهذا يبين أن المذنب بالشرب وغيره قد يكون محباً لله ورسوله ، وحب الله ورسوله أوثق عرى الإيمان ، كما أن العابد الزاهد قد يكون لما فى قلبه من بدعة ونفاق مسخوطاً عليه [عند الله ورسله من ذلك الوجه][8] ، كما استفاض فى الصحاح وغيرها من حديث [أمير المؤمنين] على بن أبى طالبٌ وأبى سعيد الخدرى وغيرهما عن النبى ﷺ أنه ذكر الخوارج فقال : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، أينما لقيتموهم فاقتلوهم ؛ فإن فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد »[9] .

---

(٦) فى المخطوط : يدعى .

(٧) أخرجه البخارى (١٢/٧٥/فتح) وأبو يعلى (١٧٦) والبيهقى (٨/٣١٢) واللفظ له ، والبغوى (١٠/٣٣٦) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرفوعاً . ولفظ البخارى وأبى يعلى البغوى « لا تلعنوه ، فو الله ما علمت إلا أنه يُحبُّ الله ورسوله » .

(٨) فى المخطوط : من ذلك الوجه عند الله ورسوله .

(٩) أما حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(..... إن من ضئضىء هذا قومًا يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد) .

وهؤلاء قاتلهم أصحاب رسول الله ﷺ مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب بأمر النبى ﷺ .

وقال النبى ﷺ فيهم فى الحديث الصحيح : « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق »(١٠) .

أخرجه البخارى (٦/٦١٨) ومسلم (٢/٧٤١/عبد الباقى) واللفظ له ، وأبو داود (٤٧٦٤) والنسائى (٤١٠١) والبيهقى (٨/١٦٩) وأحمد (٣/٦٨/٧٣) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه مرفوعاً . أما حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يأتى فى آخر الزمان قومٌ حُدثاء الأسنان ، سُفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البرية ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهمُ من الرمية ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة .

قطعة من حديث :

أخرجه البخارى (٦/٦١٨/فتح) واللفظ له ، ومسلم (٢/٧٤٦/ عبد الباقى) وأبو داود (٤٧٦٧) والنسائى (٤١٠٢) والبيهقى (٨/١٧٠) وأحمد (١/٨١ و ١١٣ و ١٣١) من حديث على رضى الله عنه مرفوعاً .

(١٠) أخرجه مسلم (٢/٧٤٦/عبد الباقى) وأبو داود (٤٦٦٧) والبيهقى فى دلائل النبوة (٦/٤٢٤) وأحمد (٣/٣٢) والنسائى فى خصائص علىّ (١٦٣) من طريق أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق) واللفظ لمسلم .

[خطر البدعة وأثرها على التوبة]

ولهذا قال أئمة الإسلام كسفيان الثورى[11] وغيره إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن البدعة لا يتاب منها ، والمعصية يتاب منها .

ومعنى قولهم أن البدعة لا يتاب منها : إن المبتدع الذى يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسناً فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً ، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه ، أو [بأنه] ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله .

فما دام يرى فعله حسناً وهو سيء فى نفس الأمر فإنه لا يتوب .

ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف [من] أهل البدع والضلال ، وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه ، فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾[12] وقال تعالى : ﴿ **ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً** ﴾[13] .

---

(١١) سفيان الثورى : سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، أمير المؤمنين فى الحديث كان سيد أهل زمانه فى علوم الدين والتقوى ، ولد ونشأ فى الكوفة ٩٧ هـ وراوده المنصور العباسى على أن يلى الحكم فأبى وخرج من الكوفة سنة ١٤٤ فسكن مكة والمدينة وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً ١٦١ هـ له من الكتب (الجامع الكبير) (والصغير) فى الحديث ، وكتاب فى (الفرائض) انظر [الأعلام / للزركلى ١٠٤/٣) دار العلم للملايين .

(١٢) سورة محمد الآية : ١٧ .

(١٣) سورة النساء : الآية ٦٦ .

وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾(١٤) وقال تعالى : ﴿ **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور** ﴾(١٥) وقال تعالى : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾(١٦) . وشواهد [هذا](١٧) كثيرة فى الكتاب والسنة .

[ضرر اتباع الهوى]

وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذى يعلمه [تبعاً](١٨) لهواه فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح ، كما قال تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾(١٩) . وقال تعالى : ﴿ **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً** ﴾(٢٠) وقال تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل : إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون** ﴾(٢١) وهذا استفهام نفى وإنكار : أى وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، وأنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة على قراءة من قرأ (إنها) بالكسر تكون جزماً بأنها إذا جاءت

(١٤) سورة الحديد : الآية ٢٨ .
(١٥) سورة البقرة : الآية ٢٥٧ .
(١٦) سورة المائدة : الآية ١٥ .
(١٧) فى المخطوط : ذلك .
(١٨) فى المخطوط : متبعاً .
(١٩) سورة الصف : الآية ٥ .
(٢٠) سورة البقرة : الآية ١٠ .
(٢١) سورة الأنعام : الآية ١٠٩ ، ١١٠ .

لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ؛ ولهذا قال من قال من السلف **كسعيد بن جبير**[٢٢] : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها .

[الصدق يستلزم البر وهو جماع الدين]

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « عليكم بالصدق ! فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب . ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »[٢٣] فأخبر النبى ﷺ أن الصدق أصل يستلزم البر ، وأن الكذب يستلزم الفجور .

وقال الله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم** ﴾[٢٤] ولهذا كان بعض المشايخ إذا أمر بعض متبعيه بالتوبة وأحب أن لا ينفره ولا يتعب قلبه أمره بالصدق .

ولهذا كان يكثر فى كلام مشايخ الدين وأئمته ذكر الصدق والإخلاص حتى يقولون : قل لمن لا يصدق : لا يتبعنى . ويقولون : الصدق سيف الله

---

(٢٢) سعيد بن جبير الأسدى ، بالولاء الكوفى ، أبو عبد الله : تابعى ، كان أعلمهم على الإطلاق ، وهو حبشى الأصل ، من موالى بنى والبة بن الحارث من بنى الأسد .

(٢٣) أخرجه البخارى (١٠/٥٠٧/فتح) ومسلم (٢٦٠٧) وأبو داود (٤٩٨٩) والترمذى (١٩٧١) وأحمد (١/٣٨٤ ، ٤٣٢) والبيهقى (١٠/١٩٦) والبغوى (٣٥٧٤) وابن حبان (٢٧٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً .

(٢٤) سورة الانفطار : الآية ١٣ .

فى الأرض وما وضع على شيء إلا قطعه ، ويقول **يوسف بن أسباط**[٢٥] وغيره : ما صدق الله عبد إلا صنع له ، وأمثال هذا كثير .

والصدق والإخلاص هما فى الحقيقة تحقيق الإيمان والإسلام ، فإن المظهرين للإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق ، والفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق فإن أساس النفاق الذى يبنى عليه هو الكذب ؛ ولهذا إذا ذكر الله حقيقة الإيمان نعته بالصدق كما فى قوله تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا ، قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا** : **أسلمنا** ﴾[٢٦] إلى قوله : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم . يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** ﴾ .

فأخبر أن الصادقين فى دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب إيمانهم ريبة وجاهدوا فى سبيله بأموالهم وأنفسهم ، وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين كما قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾[٢٨] قال ابن عباس ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه .

---

(٢٥) يوسف بن أسباط الشيبانى الزاهد الواعظ ، روى عن سفيان الثورى وغيره ، وروى عنه المسيب بن واضح وعبد الله بن خبيق الأنطاكى توفى قبل المائتين بسنة . صفة الصفوة (٢٦١/٤) .

(٢٦) سورة الحجرات : الآية ١٤ .

(٢٧) سورة الحشر : الآية ٨ .

(٢٨) سورة آل عمران : الآية ٨١ .

وقال تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا منهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز** ﴾[٢٩] فذكر [تعالى][٣٠] أنه أنزل الكتاب والميزان ، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط ؛ وليعلم الله من ينصره ورسله **ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدى ، وسيف ينصر** ، وكفى بربك هاديا ونصيراً .

والكتاب والحديد وإن اشتركا فى الإنزال فلا يمنع أن يكون أحدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر . حيث نزل الكتاب من الله ، كما قال تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾[٣١] وقال تعالى : ﴿ **الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾[٣٢] وقال تعالى : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾[٣٣] والحديد أنزل من الجبال التى خلق فيها .

وكذلك وصف الصادقين فى دعوى البر الذى هو جماع الدين فى قوله تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** ﴾[٣٤] إلى قوله : ﴿ **أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾ وأما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب فى آيات متعددة كقوله تعالى : ﴿ **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾[٣٥] وقوله تعالى : ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين**

---

(٢٩) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٣٠) فى المخطوط : سبحانه .

(٣١) سورة الزمر : الآية ١ .

(٣٢) سورة هود : الآية ١ .

(٣٣) سورة النمل : الآية ٦ .

(٣٤) سورة البقرة: الآية ١٧٧ .

(٣٥) سورة البقرة : الآية ١٠ .

لكاذبون ﴾[٣٦] وقوله تعالى : ﴿ **فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون ﴾**[٣٧] ونحو ذلك فى القرآن كثير .

الصدق والتصديق فى الأقوال والأعمال

ومما ينبغى أن يعرف أن الصدق والتصديق يكون فى الأقوال وفى الأعمال ، كقول النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة ، فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، والأذنان تزنيان وزناهما السمع ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشى ، والقلب يتمنى ويشتهى ، والفرج يصدق ذلك [أو] يكذبه »[٣٨] .

ويقال حملوا على العدو حملة صادقة إذا كانت إرادتهم للقتال ثابتة جازمة :

ويقال : فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك .

ولهذا يريدون بالصادق ، الصادق فى إرادته وقصده وطلبه ، وهو الصادق فى عمله ويريدون الصادق فى خبره وكلامه .

والمنافق ضد المؤمن الصادق ، وهو الذى يكون كاذبا فى خبره أو كاذبا فى عمله كالمرائى فى عمله .

قال الله تعالى : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ﴾**[٣٩] الآيتين .

---

(٣٦) سورة المنافقون : الآية ١ .

(٣٧) سورة التوبة : الآية ٧٧ .

(٣٨) أخرجه مسلم (٢٠٤٧/٤/عبد الباقى) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣٩) سورة النساء : الآية : ١٤٢ .

الإخلاص هو حقيقة الإسلام

وأما الإخلاص فهو حقيقة الإسلام إذ « **الإسلام** » هو الاستسلام لله لا لغيره كما قال تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان** ﴾(٤٠) الآية .

فمن لم يستسلم لله فقد استكبر ، ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك ، وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام ، والإسلام ضد الشرك والكبر ويستعمل لازما ومتعديا كما قال تعالى : ﴿ **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين** ﴾(٤١) وقال تعالى : ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾(٤٢) وأمثال ذلك فى القرآن كثير .

ولهذا كان رأس الإسلام « شهادة أن لا إله إلا الله » ، وهى متضمنة عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه ، وهو الإسلام العام الذى لا يقبل الله من الأولين والآخرين دينا سواه ،

كما قال تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾(٤٣) وقال تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام** ﴾(٤٤) .

وهذا الذى ذكرناه مما يبين أن أصل الدين فى الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال ، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها . كما قال النبى ﷺ

---

(٤٠) سورة الزمر : الآية ٢٩ .
(٤١) سورة البقرة : الآية ١٣١ .
(٤٢) سورة البقرة : الآية ١١٢ .
(٤٣) سورة آل عمران : الآية ٨٥ .
(٤٤) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

فى الحديث الذى رواه أحمد فى مسنده : « الإسلام علانية والإيمان فى القلب »[٤٥] .

ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه عن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ « الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلح صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب »[٤٦] ، وعن أبى هريرة[٤٧]

(٤٥) أخرجه أحمد (٣/١٣٥) وابن أبى شيبة فى مصنفه (١١/١١) وفى الإيمان (٦) والبزار [١/١٩/كشف) من طرق عن على بن مسعدة ثنا قتادة عن أنس به .

على بن مسعدة : ضعيف . قال العقيلى فى الضعفاء (٣/٢٥٠)
قال البخارى : فيه نظر .

والحديث ضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع برقم : ٢٢٨٠ .

(٤٦) أخرجه البخارى (١/١٢٦ ، ٤/٢٩٠ - فتح) ومسلم (١٥٩٩) وأبو داود (٣٣٢٩) والنسائى (٧/٢٤١ - ٢٤٢) والترمذى (١٢٠٥) وابن ماجة (٣٩٨٤) والدارمى (٢/١٦١) وابن الجارود (٥٥٥) وأحمد (٤/٢٦٩ ، ٢٧٠) والحميدى (٩١٨) والطحاوى فى « المشكل » (١/٣٢٤) وأبو الشيخ فى الأمثال (٢٦٠) وأبو نعيم فى « الحلية » (٤/٢٦٩ - ٢٧٠) والبيهقى (٥/١٦٤) من حديث النعمان بن بشير وزيادة « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد ....) .

فهى للبخارى ومسلم ، وابن ماجة ، والدارمى ، والبيهقى ، وأحمد فى الموضع الثانى دون سائرهم .

(٤٧) أخرجه البيهقى فى الشعب وأبو نعيم فى الطب مرفوعاً عن أبى هريرة رضى الله عنه كما فى اللآلى المصنوعة (١/٠٦/٩٧) وأخرجه الطبرانى من حديث عائشة رضى الله عنها مرفوعاً كما فى اللآلى المصنوعة (١/٩٥) وقال العراق فى تعليقه على الإحياء (١/٩٥) : لا يصح منها شىء .

- وضعفه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٤١٤٢) وأخرجه البيهقى موقوفاً على أبى هريرة كما فى اللآلى المصنوعة (١/٩٦) : قال البيهقى فى شعب الإيمان أنبأنا أبو الحسين بن

قال : القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث [الملك] خبثت جنوده(٤٨) .

فصـــــل

الأعمال الباطنـة

[من محبة وإخلاص وتوكل ورضا]

[ومتى يكون الحزن مباحاً أو منهى عنه]

وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك ، كلها مأمور بها فى حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محموداً فى حال أحد ، وإن ارتقى مقامه .

وأما « الحزن » فلم يأمر الله به ولا رسوله ، بل قد نهى عنه فى مواضع وأن تعلق بأمر الدين .

كقوله تعالى : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾(٤٩) .

= بشران أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار حدثنا أحمد بن منصور حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن عاصم عن أبى صالح عن أبى هريرة فذكره وهذا سند حسن .

(٤٨) ومما تقدم يتبين لنا أن مما يؤكد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله فى هذه المقدمة بعد أن تعرض : ١ - للظالم . ٢ - وللمقتصد . ٣ - وللسابق بالخيرات .

وأن كل من المقتصد والسابق بالخيرات قد تكون له ذنوب ولكن تمحى عنه بتوبة فالله يحب التوابين ويحب المتطهرين ثم يتكلم على الظالم لنفسه فهو بقدر ولايته لله تكون بقدر إيمانه وتقواه ومن خلال ذلك يقول إن الإيمان يزيد وينقص وبعد ذلك يبين أثر البدعة وكيف يكون تأثيرها على التوبة وإن من مستلزماته البر وبه جماع الدين ويؤكد على أن قوام الدين لا يكون إلا بكتاب يهدى وسيف ينصر ثم يخرج بنتيجة إيجابية أن أصل الدين فى الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها .

(٤٩) سورة آل عمران : الآية ١٣٩ .

وقوله : ﴿ **ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون** ﴾[٥٠] . وقوله : ﴿ **إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا** ﴾[٥١] وقوله : ﴿ **ولا يحزنك قولهم** ﴾[٥٢] وقوله : ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾[٥٣] وأمثال ذلك كثير .

وذلك لأنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه ، وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به ، نعم ! لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم ، كما يحزن على المصائب ، كما قال النبى ﷺ : « إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا على حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا أو يرحم وأشار بيده إلى لسانه »[٥٤] وقال ﷺ : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب »[٥٥] ومنه قوله تعالى : ﴿ **وتولى عنهم وقال : يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم** ﴾[٥٦] .

وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محموداً من تلك الجهة لا من جهة الحزن ، كالحزن على مصيبة فى دينه ، وعلى مصائب المسلمين عموما فهذا يثاب على ما فى قلبه من حب الخير ، وبغض الشر ، وتوابع ذلك ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة نهى عنه ، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن .

---

(٥٠) سورة النحل : الآية ١٢٧ .

(٥١) سورة التوبة : الآية ٤٠ .

(٥٢) سورة يونس : الآية ٦٥ .

(٥٣) سورة الحديد : الآية ٢٣ .

(٥٤) أخرجه البخارى (١٧٥/٣ - فتح) ومسلم (٦٣٦/٢/ عبد الباق) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

(٥٥) أخرجه البخارى (١٧٣/٣/فتح) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٥٦) سورة يوسف : الآية ٨٦ .

وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به كان مذموما عليه من تلك الجهة ، وإن كان محموداً من جهة أخرى .

وأما المحبة لله والتوكل عليه والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض ، وهى حسنة محبوبة فى حق كل أحد من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن قال إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط فى ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها : فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط ، وإنما يخرج عنها كافر أو منافق .

[حقيقة التوكـــل]

وقد تكلم بعضهم [فى ذلك] بكلام بينا غلطه فيه وإنه تقصير فى تحقيق هذه المقامات (بكلام مبسوط) وليس هذا موضعه .

ولكن هذه « المقامات » ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم ، فللخاصة خاصها ، وللعامة عامها .

مثال ذلك أن هؤلاء قالوا : « إن التوكل مناضلة عن النفس فى طلب القوت ، والخاص لا يناضل عن نفسه . وقالوا : المتوكل يطلب بتوكله أمراً من الأمور .

والعارف يشهد الأمور بفروعها منها فلا يطلب شيئاً » .

فيقال : أما الأول فإن التوكل أعم من التوكل فى مصالح الدنيا ، **فإن المتوكل يتوكل على الله فى صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وإرادته** وهذا أهم الأمور إليه ، ولهذا يناجى ربه فى كل صلاة بقوله : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾(٥٧) كما فى قوله تعالى : ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾(٥٨) وقوله :

---

(٥٧) سورة الفاتحة : الآية ٥ .

(٥٨) سورة هود : الآية ١٢٣ .

﴿ **عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾[٥٩] وقوله : ﴿ **قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب** ﴾[٦٠] .

فهو قد جمع بين العبادة والتوكل فى عدة مواضع ؛ لأن هذين يجمعان الدين كله .

ولهذا قال من قال من السلف : إن الله جمع الكتب المنزلة فى القرآن ، وجمع علم القرآن فى المفصل ، وجمع علم المفصل فى فاتحة الكتاب ، وجمع علم فاتحة الكتاب فى قوله : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ .

وهاتان الكملتان هما الجامعتان اللتان للرب والعبد ، كما فى الحديث الذى فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « يقول الله سبحانه قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين نصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل قال رسول الله ﷺ : يقول العبد : الحمد لله رب العالمين ، يقول الله حمدنى عبدى ، يقول العبد : الرحمن الرحيم : يقول الله : أثنى على عبدى ، يقول العبد : مالك يوم الدين ، يقول الله مجدنى عبدى ، يقول العبد : إياك نعبد وإياك نستعين ، يقول الله فهذه الآية بينى وبين بعدى نصفين ولعبدى ما سأل . يقول العبد : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين يقول الله : فهؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل »[٦١] فالرب سبحانه له نصف الثناء والخير والعبد له نصف الدعاء والطلب وهاتان جامعتان ما للرب سبحانه ، وما للعبد فإياك نعبد للرب ، وإياك نستعين للعبد .

---

(٥٩) سورة هود : الآية ٨٨ ، والشورى الآية : ١٠ .

(٦٠) سورة الرعد : الآية ٣٠ .

(٦١) أخرجه مالك (٨٤/١) ومسلم (٣٩٦/١/عبد الباق) وأبو داود (٨٢١) والنسائى (١٣٦/٢) والترمذى (٢٩٥٤) وأحمد (٢٤١/٢) والبيهقى (٣٧٥/٣٩/٢) والبغوى (٤٨/٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

[معنى العبادة]
[من كمال الحب لله ونهايته وكمال الذل ونهايته]

[وفى][٦٢] الصحيحين عن معاذ رضى الله عنه قال : كنت رديفا للنبى ﷺ على حمار فقال : « يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتـدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال : حقهم عليه أن لا يعذبهم »[٦٣] .

والعبادة : هى الغاية التى خلق الله لها العباد من جهة أمر الله ومحبته ورضاه كما قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[٦٤] وبها أرسل الرسل وأنزل الكتب وهى اسم يجمع [كمال الحب لله ونهايته ، وكمال الذل لله ونهايته] ، فالحب الخلى عن ذل والذل الخلى عن حب لا يكون عبادة ، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين ، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله ، وهى وإن كانت منفعتها للعبد والله غنى عن العالمين فهى له من جهة محبته لها ورضاه بها .

ولهذا كان الله أشد فرحاً بتوبة العبد من الفاقد لراحلته عليها طعامه وشرابه فى أرض دوية ملهكة إذ نام آيسا منها ثم استيقظ فوجدها ، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته[٦٥] .

---

(٦٢) فى المخطوط : كما فى .

(٦٣) أخرجه البخارى (٥٨/٦ – فتح) ومسلم (٤٩/٣٠) والترمذى (٢٦٤٣) وأحمد (٢٢٨/٥) والطيالسى (٥٦٥) والبيهقى فى الأربعين الصغرى (٥) وابن حبان (٢٥٠/١) وابن مندة فى الإيمان (١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨) من طريق عمرو بن ميمون ، عن معاذ .

وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٦٤) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٦٥) أخرجه البخارى (١٠٢/١١/فتح) ومسلم (٢١٠٣/٤/عبد الباقى) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

وهذا يتعلق به أمور جليلة قد بسطناها وشرحناها فى غير هذا الموضع .

والتوكل والاستعانة للبعد ، لأنه هو الوسيلة والطريق الذى ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة ، فالاستعانة كالدعاء والمسئلة . وقد روى الطبرانى فى كتاب الدعاء عن النبى ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : ياابن آدم ! إنما هى أربع واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة بينى وبينك ، وواحدة بينك وبين خلقى . فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئاً ، وأما التى هى لك فعملك أجازيك به أحوج ما تكون إليه ، وأما التى بينى وبينك فمنك الدعاء وعلى الإجابة ، وأما التى بينك وبين خلقى فأت للناس ما تحب أن يأتوا إليك »(٦٦) .

وكون هذا [لله] وهذا للعبد هو باعتبار تعلق المحبة والرضا ابتداء ، فإن العبد ابتداء يحب ويريد ما يراه ملائماً له ، والله تعالى يحب ويرضى ما هو الغاية المقصودة فى رضاه ، ويحب الوسيلة تبعاً لذلك ، وإلا فكل مأمور به فمنفعته عائدة على العبد ، وكل ذلك يحبه الله ويرضاه ، وعلى هذا فالذى ظن أن التوكل من المقامات العامة ظن أن التوكل لا يطلب به إلا حظوظ الدنيا ، وهو غلط بل التوكل فى الأمور الدينية أعظم .

وأيضاً [التوكل من الأمور](٦٨) الدينية التى لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه .

و « **الزهد المشروع** » هو ترك الرغبة فيما لا ينفع فى الدار الآخرة ، وهو فضول المباح التى لا يستعان بها على طاعة الله .

كما أن « **الورع المشروع** » هو ترك ما قد يضر فى الدار الآخرة ، وهو ترك المحرمات والشبهات التى لا يستلزم تركها ترك ما فعله أرجح منها ،

---

(٦٦) أخرجه أبو يعلى (٢٧٥٧) والطبرانى فى الدعاء (١٦) والبزار (١٩) من طريق صالح المرى قال سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعاً به وإسناده ضعيف من أجل صالح المرى فإنه ضعيف .

(٦٧) فى المخطوط : للرب .

(٦٨) فى المخطوط : فالأمور .

كالواجبات فأما ما ينفع فى الدار الآخرة بنفسه أو يعين على ما ينفع فى الدار الآخرة ، فالزهد فيه ليس من الدين بل صاحبه داخل فى قوله تعالى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾(٦٩) .

كما أن الاشتغال بفضول المباحات ، هو ضد الزهد المشروع ، فإن اشتغل بها عن فعل واجب أو فعل محرم كان عاصياً ، وإلا كان منقوصا عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين .

و (**أيضاً**) **فإن التوكل** هو محبوب لله مرضى له مأمور به دائماً ، وما كان محبوبا لله مرضياً له مأموراً به دائماً لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين ، فهذه ثلاثة أجوبة عن قولهم : المتوكل يطلب حظوظه(٧٠) .

[القضاء والقدر]

وأما قولهم : [إن] الأمور قد فرغ منها ، فهذا نظير ما قاله بعضهم فى الدعاء أنه لا حاجة إليه ، لأن المطلوب إن كان [مقدراً] فلا حاجة إليه ، وإن لم يكن مقدراً لم ينفع الدعاء ، وهذا القول من أفسد الأقوال شرعاً وعقلاً .

وكذلك قول من قال : التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به مضرة ، وإنما هو عبادة محضة . وأن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض ، وهذا وإن كان قاله طائفة من المشائخ فهو غلط أيضاً .

وكذلك قول من قال : إن الدعاء إنما هو عبادة محضة .

---

(٦٩) سورة المائدة : الآية ٨٧ .

(٧٠) قد بين شيخ الإسلام حقيقة التوكل . ورد على من يقول خلاف الصواب بثلاثة ردود قوية وبين المعنى المطلوب من العبادة وكيف أنها لا تكون إلا بكمال الحب لله ونهايته مع كمال الذل ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله .

فهذه الأقوال وما أشبهها يجمعها أصل واحد : وهو أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن تتوقف على أسباب مقدرة - أيضاً - تكون من العبد ؛ ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التى جعلها معلقة بها من أفعال العباد ، وغير أفعالهم ، ولهذا كان طرد قولهم يوجب تعطيل الأعمال بالكلية .

وقد سئل النبى ﷺ عن هذا [الأصل] مرات فأجاب عنه .

كما أخرجاه فى الصحيحين عن عمران بن حصين قال : « قيل لرسول الله ﷺ : يارسول الله ! أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم . قالوا : ففيم العمل ؟ قال : كل ميسر لما خلق له »(٧١) وفى الصحيحين(٧٢) عن على بن أبى طالب قال : « كنا فى جنازة فيها رسول الله ﷺ فجلس ومعه مخصرة فجعل ينكت بالمخصرة(٧٣) فى الأرض ثم رفع رأسه وقال ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من النار أو الجنة ، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة . قال : فقال رجل من القوم يانبى الله ! أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى الشقاوة قال أعملوا فكل ميسر لما خلق له . أما أهل السعادة فييسرون للسعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون للشقاوة ، ثم قال نبى الله ﷺ : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)(٧٤) أخرجه الجماعة فى الصحاح والسنن والمسانيد .

---

(٧١) أخرجه البخارى (٤٩١/١١ - فتح) ومسلم (٢٠٤١/٤/ عبد الباقى) من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه .

(٧٢) أخرجه البخارى (٦٦٠٥/فتح) ومسلم (٢٦٤٧/عبد الباقى) من حديث على رضى الله عنه .

(٧٣) قال ابن حجر فى الفتح (٤٩٦/١١) :

المخصرة : بكسر الميم وسكون المعجمة وفتح الصاد المهملة هى عصا أو قضيب يمسكه الرئيس ليتوكأ عليه ويدفع به عنه ويشير به لما يريد ، وسميت بذلك لأنها تحمل تحت الخصر غالباً للإتكاء عليها) وفى اللغة اختصر الرجل إذا أمسك المخصرة .

(٧٤) سورة الليل : الآية ٥ .

وروى الترمذى « أن النبى ﷺ سئل فقيل : يارسول الله ! أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقى نسترقى بها وتقى نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال هى من قدر الله »[٧٥] .

وقد جاء هذا المعنى عن النبى ﷺ فى عدة أحاديث .

فبين ﷺ أن تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقى لا ينافى أن تكون سعادة هذا بالأعمال الصالحة ، وشقاوة هذا بالأعمال السيئة ؛ فإنه سبحانه يعلم الأمور على ما هى عليه ، وكذلك يكتبها ؛ فهو يعلم أن السعيد يسعد بالأعمال الصالحة ، والشقى يشقى بالأعمال السيئة ، فمن كان سعيداً ييسر للأعمال الصالحة التى تقتضى السعادة ؛ ومن كان شقياً ييسر للأعمال السيئة التى تقتضى الشقاوة ؛ وكلاهما ميسر لما خلق له ، وهو ما يصير إليه من مشيئة الله العامة الكونية التى ذكرها الله سبحانه فى كتابه فى قوله تعالى : ﴿ **ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم** ﴾[٧٦] .

[تقسيم الكلمات والأمر والإرادة والإذن والكتاب والحكم والقضاء والتحريم إلى كونى وشرعى]

وأما ما خلقوا له من محبة الله ورضاه وهو إرادته الدينية التى أمروا بموجبها فذلك مذكور فى قوله : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[٧٧] .

والله سبحانه قد بين فى كتابه فى كل واحدة : من « الكلمات » و « الأمر » و « الإرادة » و « الإذن » و « الكتاب » و « الحكم» و « القضاء »

---

(٧٥) أخرجه الترمذى (٢٠٦٥) وابن ماجة (٢٤٣٧) وأحمد (٤٢١/٣) من طريق سفيان بن عيينة عن الزهرى عن ابن أبى خزامة عن أبيه مرفوعاً .
وضعفه الألبانى فى ضعيف سنن ابن ماجة رقم ٧٤٩ .

(٧٦) سورة هود : الآية ١١٨ .

(٧٧) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

و « التحريم » ونحو ذلك ما هو دينى موافق لمحبة الله ورضاه وأمره الشرعى ؛ وما هو كونى موافق لمشيئته الكونية .

مثال ذلك أنه قال فى « **الأمر الدينى** » : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى** ﴾[78] وقال تعالى : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾[79] ونحو ذلك . وقال فى « الكونى » : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾[80] .

وكذلك قوله : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول** ﴾[81] على إحدى الأقوال فى هذه الآية .

وقال فى « الإرادة الدينية » : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾[82] ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم** ﴾[83] ﴿ **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم** ﴾[84] .

وقال فى « الإرادة الكونية » : ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد** ﴾[85] وقال : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء** ﴾[86] .

---

(٧٨) سورة النحل : الآية ٩٠ .
(٧٩) سورة النساء : الآية ٥٨ .
(٨٠) سورة يسٓ : الآية ٨٢ .
(٨١) سورة الإسراء : الآية ١٦ .
(٨٢) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .
(٨٣) سورة النساء : الآية ٢٦ .
(٨٤) سورة المائدة : الآية ٦ .
(٨٥) سورة البقرة : الآية ٢٥٣ .
(٨٦) سورة الأنعام : الآية ١٢٥ .

وقال نوح عليه السلام : ﴿ **ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾[87] .

وقال تعالى فى « الإذن الدينى » : ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين** ﴾[88] .

وقال تعالى فى « الكونى » : ﴿ **وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾[89] .

وقال تعالى فى « القضاء الدينى » : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾[90] أى أمر .

وقال تعالى فى « الكونى » : ﴿ **فقضاهن سبع سموات فى يومين** ﴾[91] .

وقال تعالى فى « الحكم الدينى » : ﴿ **أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ، إن الله يحكم ما يريد** ﴾[92] وقال تعالى : ﴿ **ذلكم حكم الله يحكم بينكم** ﴾[93] .

وقال تعالى فى « الكونى » عن ابن يعقوب : ﴿ **فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين** ﴾[94] وقال تعالى : ﴿ **قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾[95] .

---

(٨٧) سورة هود : الآية ٣٤ .
(٨٨) سورة يسٓ : الآية ٨٢ .
(٨٩) سورة الحشر : الآية ٥ .
(٩٠) سورة البقرة : الآية ٢٣ .
(٩١) سورة الإسراء : الآية ٢٣ .
(٩٢) سورة فصلت : الآية ١٢ .
(٩٣) سورة المائدة : الآية ١ .
(٩٤) سورة الممتحنة : الآية ١٠ .
(٩٥) سورة يوسف : الآية ٨٠ .

وقال تعالى فى « التحريم الدينى » : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير** ﴾[٩٦] ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم** ﴾[٩٧] الآية . وقال تعالى فى « التحريم الكونى » : ﴿ **فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض** ﴾[٩٨] .

وقال تعالى : ﴿ **والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم** ﴾[٩٩] وقال تعالى فى « الكلمات الدينية » : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن** ﴾[١٠٠] وقال تعالى فى « الكونية » : ﴿ **وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا** ﴾[١٠١] ومنه قوله ﷺ المستفيض عنه من وجوه فى الصحاح والسنن والمسانيد أنه كان يقول فى استعاذته « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر »[١٠٢] ومن المعلوم أن هذا هو الكونى الذى لا يخرج منه شيء ، عن مشيئته وتكوينه ، وأما الكلمات الدينية فقد خالفها [الفجار] بمعصيته .

والمقصود هنا : أنه ﷺ بين أن العواقب التى خلق لها الناس من سعادة وشقاوة ييسرون لها بالأعمال التى يصيرون بها إلى ذلك ، كما أن سائر المخلوقات

---

(٩٦) سورة الأنبياء : الآية ٣ .

(٩٧) سورة المائدة : الآية ٣ .

(٩٨) سورة النساء : الآية ٢٣ .

(٩٩) سورة المائدة : الآية ٢٦ .

(١٠٠) سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

(١٠١) سورة الأعراف : الآية ١٣٧ .

(١٠٢) أخرجه أحمد (٤١٩/٣) وأبو نعيم فى الدلائل (٦٠/١) والبيهقى فى الأسماء والصفات (٤١) من حديث عبد الرحمن بن خنبش قال العراق (٣٣٢/١) فى تعليقه على الإحياء : إسناد أحمد جيد وأخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث خالد بن الوليد كما فى مجمع الزوائد (١٢٦/١٠، ١٢٧) قال الهيثمى : وفيه الحكم بن عبد الله الأيلى وهو متروك .

وأخرجه الطبرانى فى الصغير كما فى مجمع الزوائد (١٢٧/١٠ - ١٢٨) من حديث عبد الله بن مسعود . قال الهيثمى وفيه من لم أعرفه .

كذلك ؛ فهو سبحانه يخلق الولد وسائر الحيوان فى الأرحام بما يقدره من اجتماع الأبوين على النكاح ، واجتماع المائين فى الرحم ، فلو قال الإنسان أنا أتوكل ولا أطأ زوجتى فإن كان قد قضى لى بولد [وجد] وإلا لم يوجد ولا حاجة إلى وطء ، كان أحمق بخلاف ما إذا وطىء وعزل الماء فإن عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد إذا شاء الله ، إذ قد [يسبق] الماء بغير اختياره .

ومن هذا ما ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى . قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة بنى المصطلق فأصبنا سبياً من العرب فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزبة وأحببنا العزل فسألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : ما عليكم ألا تفعلوا ، فإن الله قد كتب ما هو خالق إلى يوم القيامة »(١٠٣) وفى صحيح مسلم عن جابر : « أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال إن لى جارية هى خادمتنا وسانيتنا فى النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل فقال اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها »(١٠٤) .

وهذا مع أن الله سبحانه قادر على ما قد فعله من خلق الإنسان من غير أبوين كما خلق آدم ، ومن خلقه من أب فقط كما خلق حواء من ضلع آدم القصير ومن خلقه من أم فقط كما خلق المسيح بن مريم عليه السلام ، لكن خلق ذلك بأسباب أخرى غير معتادة .

وهذا الموضع وإن كان إنما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع فقد وقع فى كثير من [دقه] كثير من المشائخ المعظمين يسترسل أحدهم مع القدر غير محقق لما أمر به ونهى عنه ، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل ، والجرى مع الحقيقة القدرية ، ويحسب أن قول القائل ينبغى للعبد أن يكون مع الله كالميت بين يدى الغاسل يتضمن ترك العمل بالأمر والنهى حتى يترك ما أمر به ، ويفعل ما نهى عنه وحتى يضعف عنده النور والفرقان الذى يفرق به بين ما أمر الله به وأحبه ورضيه ، وبين ما نهى عنه وأبغضه وسخطه فيسوى بين ما فرق الله بينه .

---

(١٠٣) أخرجه البخارى (١٩٤/٢) (١٤٨/٥/فتح) (١٤٨/٩/فتح) ومسلم (١٤٣٨) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(١٠٤) أخرجه مسلم (١٤٣٩) من حديث جابر رضى الله عنه .

كما قال تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾(١٠٥) وقال تعالى : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون** ﴾(١٠٦) وقال تعالى : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ؟!** ﴾(١٠٧) وقال تعالى : ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟** ﴾(١٠٨) وقال تعالى : ﴿ **وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور** ﴾(١٠٩) وأمثال ذلك .

حتى يفضى الأمر بغلاتهم إلى عدم التمييز بين الأمر بالمأمور النبوى الإلهى الفرقانى الدينى الشرعى الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وبين ما يكون فى [الوجود] من الأحوال التى تجرى على أيدى الكفار والفجار ، فيشهدون وجه الجمع من جهة كون الجميع بقضاء الله وقدره وربوبيته وإرادته العامة ، وأنه داخل فى ملكه ، ولا يشهدون وجه الفرق الذى فرق الله به بين أوليائه وأعدائه ، والأبرار والفجار ، والمؤمنين والكافرين ، وأهل [الطاعة](١١١) الذين أطاعوا أمره الدينى ، وأهل [المعصية](١١٢) الذين عصوا هذا الأمر [الدينى] ويستشهدون فى ذلك بكلمات مجملة نقلت عن بعض الأشياخ ، أو ببعض غلطات بعضهم .

---

(١٠٥) سورة الجاثية : الآية ٢١ .
(١٠٦) سورة القلم : الآية ٣٥ .
(١٠٧) سورة ص : الآية ٢٨ .
(١٠٨) سورة الزمر : الآية ٩ .
(١٠٩) سورة فاطر : الآية ١٩ .
(١١٠) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط وليس موجوداً فى الطبعتين .
(١١١) فى المخطوط : طاعته .
(١١٢) فى المخطوط : معصيته .

وهذا « أصل عظيم » من أعظم ما يجب الاعتناء به على أهل طريق الله السالكين سبيل الإرادة : إرادة الذين يريدون وجهه ؛ فإنه قد دخل بسبب إهمال ذلك على طوائف منهم من الكفر والفسوق والعصيان ما لا يعلمه إلا الله ، حتى يصيروا معاونين على البغى والعدوان للمسلطين فى الأرض من أهل الظلم والعلو ، كالذين يتوجهون بقلوبهم فى معاونة من يهوونه من أهل العلو فى الأرض والفساد ظانين أنهم إذا كانت لهم أحوال أثروابها فى ذلك كانوا بذلك من أولياء الله - **فإن القلوب لها من التأثير أعظم مما للأبدان** ؛ لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحاً ، وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسداً ، فالأحوال يكون تأثيرها محبوباً لله تارة ، ومكروها لله أخرى .

وقد تكلم الفقهاء على وجوب القود على من يقتل غيره فى الباطن حيث يجب القود فى ذلك - ويستشهدون ببواطنهم وقلوبهم الأمر الكونى ، ويعدون مجرد خرق العادة لأحدهم بكشف يكشف له أو بتأثير يوافق إرادته هو كرامة من الله له ، ولا يعلمون أنه فى الحقيقة [إهانة][114] ، وأن الكرامة لزوم الاستقامة ، وأن الله لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحب ويرضاه ، وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه .

وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[115] .

فإن كانوا موافقين له فيما أوجبه عليهم فهم من **المقتصدين** ، وإن كانوا موافقين فيما أوجبه وأحبه فهم من **المقربين** ، مع أن كل واجب محبوب وليس كل محبوب واجباً .

---

(١١٣) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط وليس موجوداً فى الطبعتين .
(١١٤) فى المخطوط : استدراج .
(١١٥) سورة يونس : الآية ٦٢ .

[خوارق العادات]

وأما ما يبتلى به عبده من السراء بخرق العادة أو بغيرها ، أو بالضراء فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه بل قد يسعد بها قوم إذا أطاعوه فى ذلك ، وقد يشقى بها قوم إذا عصوه فى ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلا** ﴾(١١٦) ولهذا كان الناس فى هذه الأمور على « ثلاثة أقسام » :

(قسم) ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها فى [طاعة الله] .

وقوم يتعرضون بها لعذاب الله إذا استعملوها فى معصية الله كبلعام(١١٧) وغيره .

وقوم تكون فى حقهم بمنزلة المباحات .

[والقسم](١١٨) الأول هم المؤمنون حقاً المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم الذى إنما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين الله ، أو لحاجة يستعين بها على طاعة الله . ولكثرة الغلط فى هذا الأصل نهى رسول الله ﷺ عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذى ينفع العبد ، فروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن

---

(١١٦) سورة الفجر : الآية ١٥ .

(١١٧) بلعام : كان من علماء بنى إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه فى الشدائد بعثه نبى الله موسى إلى ملك مدين يدعوه إلى الله ، فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام [تفسير ابن كثير - ٥٠٧/٣] ط الشعب .

(١١٨) فى المخطوط : فالقسم .

وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان »[١١٩] .

وفى سنن أبى داود : « أن رجلين اختصما إلى النبى ﷺ فقضى على أحدهما فقال المقضى عليه : حسبى الله ونعم الوكيل . فقال رسول الله ﷺ إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل[١٢٠] » فأمر النبى ﷺ المؤمن أن يحرص على ما ينفعه وأن يستعين بالله ، وهذا مطابق لقوله تعالى : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾[١٢١] . وقوله تعالى : ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾[١٢٢] فإن الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته إذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء أنفع له من ذلك ، وكل ما يستعان به على الطاعة هو طاعة وإن كان من جنس المباح .

قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح لسعد : « إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا إزددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها فى فى امرأتك »[١٢٣] .

فأخبر النبى ﷺ أن الله يلوم على العجز الذى هو ضد الكيس وهو التفريط فيما يؤمر بفعله ، فإن ذلك ينافى القدرة المقارنة للفعل . وإن كان لا ينافى القدرة المتقدمة التى هى مناط الأمر والنهى .

فإن الاستطاعة التى توجب الفعل تكون مقارنة له ولا تصلح إلا لمقدورها كما ذكرها الله تعالى فى قوله : ﴿ **ما كانوا يستطيعون السمع** ﴾[١٢٤] وفى قوله :

---

(١١٩) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(١٢٠) أخرجه أبو داود (٣٦٢٧) من حديث عوف بن مالك رضى الله عنه ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع رقم ١٧٥٩ .

(١٢١) سورة الفاتحة : الآية ٥ .

(١٢٢) سورة هود : الآية ٢٣ .

(١٢٣) أخرجه البخارى (١٢٩٥/٥٦ ، ٢٤٧٢/فتح) ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه .

(١٢٤) سورة هود : الآية ٢٠ .

﴿ **وكانوا لا يستطيعون سمعا** ﴾[١٢٥] . وأما الاستطاعة التى يتعلق بها الأمر والنهى فتلك قد يقترن بها الفعل وقد لا يقترن . كما فى قوله تعالى : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا** ﴾[١٢٦] وقول النبى ﷺ لعمران ابن حصين « صل قائما فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب »[١٢٧] .

فهذا الموضع قد انقسم [الناس فيه][١٢٨] **إلى « أربعة أقسام »** :

(١) قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهى والعبادة والطاعة شاهدين لإلهية الرب سبحانه الذى أمروا أن يعبدوه ، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة ، وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة ؛ فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله [ولشعائره] يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له هى التى تقوى العبد وتيسر عليه الأمور .

ولهذا قال بعض السلف : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله .

صفته ﷺ فى التوراة

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو « أن رسول الله ﷺ صفته فى التوراة إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يجزى بالسيئة

---

(١٢٥) سورة الكهف : الآية ١٠١ .

(١٢٦) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

(١٢٧) أخرجه البخارى (١١٧/فتح) وأبو داود (٩٥٢) والنسائى (١٦٦٠) والترمذى (٣٧٢) وابن ماجه (١٢٢٣) وأحمد (٤/٤٢٦) والبيهقى (٢/٣٠٤) والبغوى (٤/١٠٩) من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه .

(١٢٨) فى المخطوط : فيه بنو آدم .

السيئة ، ولكن يجزى بالسيئة الحسنة ويعفو ويغفر ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فأفتح به أعيناً عميا وآذاناً صما وقلوباً غلفاً بأن يقولوا لا إله إلا الله »(١٢٩)

ولهذا روى أن حملة العرش إنما أطاقوا حمل العرش بقولهم لا حول ولا قوة إلا بالله . [وقد ثبت] فى الصحيحين عن النبى ﷺ « إنها كنز من كنوز الجنة »(١٣٠) قال تعالى : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾(١٣١) وقال تعالى : ﴿ **الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾(١٣٢) إلى قوله : ﴿ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ **وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله** : ﴿ **وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ قالها إبراهيم الخليل حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم)(١٣٣) .

(٢) و (**قسم ثان**) : يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم إليه ويستعينون به لكن على أهوائهم وأذواقهم ، غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته ، وهذا حال كثير من المتفقرة والمتصوفة ، ولهذا كثيراً ما يعملون على الأحوال التى يتصرفون بها فى الوجود ، ولا يقصدون ما يرضى الرب ويحبه ، وكثيراً ما يغلطون فيظنون أن معصيته هى مرضاته فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهى ويسمون هذا حقيقة ، ويظنون أن هذه الحقيقة القدرية يجب الاسترسال

---

(١٢٩) لم يخرجه مسلم . وأخرجه البخارى (٤٨٣٨) وفى الأدب المفرد (٢٤٦) والدارمى (١/١٦) وأحمد (٢/١٧٤) والبغوى (٣٦٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

(١٣٠) أخرجه البخارى (٤٢٠٥/فتح) ومسلم (٢٧٠٤/عبد الباق) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(١٣١) سورة الطلاق : الآية ٣ .

(١٣٢) سورة آل عمران : الآية ١٧٣ .

(١٣٣) أخرجه البخارى (٤٥٦٣/فتح) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما . .

معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التي هي تحوى مرضاة الرب ومحبته وأمره ونهيه ظاهراً وباطناً .

وهؤلاء كثيراً ما يسلبون أحوالهم ، وقد يعودون إلى نوع من المعاصى والفسوق ، بل كثير منهم يرتد عن الإسلام ، لأن العاقبة للتقوى ، ومن لم يقف عند أمر الله ونهيه فليس من المتقين ، فهم يقعون فى بعض ما وقع المشركون فيه تارة فى بدعة يظنونها شرعة ، وتارة فى الاحتجاج بالقدر على الأمر ؛ والله تعالى لما ذكر ما ذم به المشركين فى سورة الأنعام والأعراف ذكر ما ابتدعوه من الدين وجعلوه شرعة كما قال تعالى : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء** ﴾(١٣٤) وقد ذمهم على أن حرموا ما لم يحرمه الله ، وأن شرعوا ما لم يشرعه الله ، وذكر احتجاجهم بالقدر فى قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا أباؤنا ولا حرمنا من شىء** ﴾(١٣٥) ونظيرها فى النحل ويس والزخرف وهؤلاء يكون فيهم شبه من هذا وهذا .

(٣) وأما (**القسم الثالث**) : وهو من أعرض عن عبادة الله واستعانته به فهؤلاء شر الأقسام .

(٤) و (**القسم الرابع**) : هو القسم المحمود [وهو حال](١٣٦) الذين حققوا ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ وقوله : ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾ فاستعانوا به على طاعته ، وشهدوا أنه إلههم الذى لا يجوز أن يعبد إلا إياه [بطاعته] وطاعة رسوله ، وأنه ربهم الذى ﴿ **ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع** ﴾(١٣٨) وأنه ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا**

---

(١٣٤) سورة الأعراف : الآية ٢٨ .
(١٣٥) سورة الأنعام : الآية ١٤٨ .
(١٣٦) فى المخطوط : وهم .
(١٣٧) سورة هود : الآية ١٢٣ .
(١٣٨) سورة الأنعام : الآية ٥١ .

مرسل له من بعده ﴾[١٣٩] ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله** ﴾[١٤٠] ﴿ **قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أردانى برحمة هل هن ممسكات رحمته** ﴾[١٤١] .

ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، وإنما التوكل المأمور به ما [اجتمع] فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع .

فقد تبين أن من ظن التوكل من مقامات عامة أهل الطريق فقد غلط غلطاً شديداً ، وإن كان من أعيان المشائخ - كصاحب « علل المقامات » وهو من أجل المشائخ ، وأخذ ذلك عنه صاحب « محاسن المجالس » - وظهر ضعف حجة من قال ذلك لظنه أن المطلوب به حظ العامة كذلك ، وذلك بمنزلة من جعل الأعمال المأمور بها كذلك ، كمن اشتغل بالتوكل عن ما يجب عليه من الأسباب التى هى عبادة وطاعة مأمور بها ؛ فإن غلط هذا فى ترك الأسباب المأمور بها التى هى داخلة فى قوله تعالى : ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾[١٤٢] كغلط الأول فى ترك التوكل المأمور به الذى هو داخل فى قوله تعالى : ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾ .

لكن يقال : من كان توكله على الله ودعاؤه له هو فى حصول مباحات فهو من العامة ، وإن كان فى حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة ، كما أن من دعاه وتوكل عليه فى حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ، ومن أعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله ، بل خارج عن حقيقة الإيمان ، فكيف يكون هذا المقام للخاصة ، قال الله تعالى : ﴿ **وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه**

---

(١٣٩) سورة فاطر : الآية ٢ .
(١٤٠) سورة يونس : الآية ١٠٧ .
(١٤١) سورة الزمر : الآية ٣٨ .
(١٤٢) سورة هود : الآية ١٢٣ .

توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾(١٤٣) وقال تعالى : ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده** ﴾(١٤٤) وقال تعالى : ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾(١٤٥) وقال تعالى : ﴿ **قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره** ﴾ إلى قوله : ﴿ **قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون** ﴾(١٤٦) .

وقد ذكر الله هذه الكلمات (**حسبى الله**) فى جلب المنفعة تارة ، وفى دفع المضرة أخرى . (**فالأولى**) فى قوله تعالى : ﴿ **ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله** ﴾(١٤٧) الآية . و (**الثانية**) فى قوله : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا . وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾(١٤٨) وفى قوله تعالى : ﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره** ﴾(١٤٩) وقوله : ﴿ **ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله** ﴾(١٥٠) يتضمن الأمر بالرضا والتوكل .

والرضا والتوكل يكتنفان المقدور ، فالتوكل قبل وقوعه . والرضا بعد وقوعه ؛ ولهذا كان النبى ﷺ يقول فى الصلاة : « اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق أحينى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى ، اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ،

---

(١٤٣) سورة يونس : الآية ٨٤ .
(١٤٤) سورة آل عمران : الآية ١٦٠ .
(١٤٥) سورة إبراهيم : الآية ١٢ .
(١٤٦) سورة الزمر : الآية ٣٨ .
(١٤٧) سورة التوبة : الآية ٥٩ .
(١٤٨) سورة آل عمران : الآية ١٧٣ .
(١٤٩) سورة الأنفال : الآية ٦٢ .
(١٥٠) سورة التوبة : الآية ٥٩ .

وأسألك قرة عين لا تنقطع ، اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ؛ وأسألك لذة النظر إلى وجهك ؛ وأسألك الشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين »[١٥١] رواه أحمد والنسائى من حديث عمار بن ياسر .

[عدم التعرض للبلاء]

وأما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا .

ولهذا كان طائفة من المشائخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء ؛ فإذا وقع انفسخت عزائمهم كما يقع نحو ذلك فى الصبر وغيره كما قال تعالى : ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون** ﴾[١٥٢] وقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾[١٥٣] نزلت هذه الآية لما قالوا لو علمنا أى الأعمال أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله سبحانه وتعالى آية الجهاد فكرهه من كرهه .

ولهذا كره للمرء أن يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه مالا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك ، أو يطلب ولاية ، أو يقدم على بلد فيه طاعون .

---

(١٥١) أخرجه النسائى (٣/٥٥) وأحمد (٤/٢٦٤) والحاكم (١/٥٢٤) وابن أبى شيبة فى المصنف (١٠/٢٦٥) والبيهقى فى الأسماء والصفات (١٤٨) وابن حبان (٥٠٩/موارد) من حديث عمار بن ياسر رضى الله عنهما .

وقال الحاكم : صحيح الإسناد ووافقه الذهبى .

وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع : ١٣٠١ .

(١٥٢) سورة آل عمران : الآية ١٤٣ .

(١٥٣) سورة الصف : الآية ١٥٢ .

كما ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن النبى ﷺ أنه نهى عن النذر ؛ وقال : « إنه لا يأتى بخير وإنما يستخرج به من البخيل »[١٥٤] وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة : « لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ؛ وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك »[١٥٥] وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال فى الطاعون : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه »[١٥٦] وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : « لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »[١٥٧] وأمثال ذلك مما يقتضى أن الإنسان لا ينبغى له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء [ويحرم عليه أشياء] فيبخل بالوفاء ؛ كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهوداً على أمور ، وغالب هؤلاء يبتلون بنقض العهود .

[الصبر وأحكامه]

ويقتضى أن الإنسان إذا ابتلى فعليه أن يصبر ويثبت ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات . ولابد فى جميع ذلك من الصبر ؛ ولهذا كان الصبر واجباً باتفاق المسلمين على أداء الواجبات ، وترك المحظورات .

---

(١٥٤) أخرجه البخارى (٦٦٠٨ ، ٦٢٩٢/فتح) ومسلم (١٢٦١/٣/عبد الباقى) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

(١٥٥) أخرجه البخارى (١٥٩/٨، ١٨٤) ومسلم (١٦٥٢/عبد الباقى) من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه .

(١٥٦) أخرجه البخارى (١٦٩/٧) ومسلم (٢٢١٩/عبد الباقى) من حديث عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه .

(١٥٧) أخرجه البخارى (٢٨١٨/٢٨٣٣ ، ٢٩٦٦/فتح) ومسلم (١٧٤٢/عبد الباقى) من حديث عبد الله بن أبى أوفى .

ويدخل فى ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها ، **والصبر عن اتباع أهواء النفوس** فيما نهى الله عنه .

وقد ذكر الله الصبر فى كتابه فى أكثر من تسعين موضعاً ، وقرنه بالصلاة فى قوله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾[١٥٨] ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾[١٥٩] وقوله : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل** ﴾ إلى قوله : ﴿ **واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾[١٦٠] ﴿ **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها** ﴾ ﴿ **فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك** ﴾[١٦١] الآية .

وجعل « الإمامة فى الدين » موروثة عن الصبر واليقين بقوله : ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾[١٦٢] . فإن الدين كله علم بالحق وعمل به ، والعمل به لابد فيه من اليقين والصبر [١٦٣] ، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر ، كما قال **معاذ بن جبل** رضى الله عنه : عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة ، ومعرفته خشية ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ؛ ومذاكرته تسبيح . به يعرف الله ويعبد ، وبه يمجد الله ويوحد ، يرفع الله بالعلم أقواما يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم ، وينتهون إلى رأيهم .

فجعل البحث عن العلم من الجهاد ، ولابد فى الجهاد من الصبر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا**

---

(١٥٨) سورة البقرة : الآية ٤٥ .

(١٥٩) سورة البقرة : الآية ١٥٣ .

(١٦٠) سورة هود : الآية ١١٥ .

(١٦١) سورة غافر : الآية ٥٥ .

(١٦٢) سورة السجدة : الآية ٢٤ .

(١٦٣) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط ليس موجوداً فى الطبعتين .

الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[١٦٤] وقال تعالى : **﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ﴾**[١٦٥] .

فالعلم النافع هو : أصل الهدى ، والعلم بالحق هو الرشاد ، وضد الأول الضلال ، وضد الثانى الغى ، فالضلال العمل بغير علم ، والغى اتباع الهوى . قال تعالى : **﴿ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾**[١٦٦] فلا ينال الهدى إلا بالعلم ولا ينال الرشاد إلا بالصبر ؛ ولهذا قال على : ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد – فإذا انقطع الرأس بان الجسد – ثم رفع صوته فقال ألا لا إيمان لمن لا صبر له .

[الرضا وأحكامه]

وأما « **الرضا** » فقد تنازع العلماء والمشائخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم فى الرضا بالقضاء : هل هو واجب أو مستحب ؟ على قولين : **فعلى الأول يكون** من أعمال المقتصدين ، **وعلى الثانى يكون** من أعمال المقربين . قال عمر بن عبد العزيز الرضا عزيز ولكن الصبر معول المؤمن . وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال لابن عباس : « إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً »[١٦٧] .

---

(١٦٤) سورة العصر .

(١٦٥) سورة ص : الآية ٤٥ .

(١٦٦) سورة النجم : الآية ١ ، ٢ .

(١٦٧) أخرجه الحاكم (٥٤١/٣) من طريق عبد الله بن ميمون القداح عن شهاب ابن خراش عن عبد الملك بن عمير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال الحاكم: إن الشيخين رضى الله عنهما لم يخرجا لشهاب بن خراش ولا للقداح فى الصحيحين . قال الذهبى : لأن القداح قال أبو حاتم متروك والآخر مختلف فيه وعبد الملك لم يسمع من ابن عباس فيما أرى .

وأخرجه أحمد (٣٠٧/١) من طريق حنش الصنعانى عن ابن عباس رض الله عنهما بلفظ (..... واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً) وصححه الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه عن المسند برقم (٢٨٠٤) .

ولهذا لم يجيء فى القرآن إلا مدح الراضين لا إيجاب ذلك وهذا فى الرضا بما يفعله الرب بعبده من المصائب كالمرض والفقر والزلزال كما قال تعالى : ﴿ **والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس** ﴾(١٦٨) وقال تعالى : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ؟!** ﴾(١٦٩) فالبأساء فى الأموال ، والضراء فى الأبدان والزلزال فى القلوب .

وأما « **الرضا بما أمر الله به** » فأصله واجب ، وهو الإيمان كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً »(١٧٠) .

وهو من توابع المحبة كما سنذكره إن شاء الله تعالى قال تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾(١٧١) وقال تعالى : ﴿ **ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله** ﴾(١٧٢) الآية .

وقال تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم** ﴾(١٧٣) وقال تعالى : ﴿ **وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم**

---

(١٦٨) سورة البقرة : الآية ١٣٧ .

(١٦٩) سورة البقرة : الآية ٢١٤ .

(١٧٠) أخرجه مسلم (٣٤) والترمذى (٢٦٢٣) وأحمد (٢٠٨/١) وابن مندة فى الإيمان (١١٤ ، ١١٥) وأبو نعيم فى الحلية (١٥٦/٩) والبيهقى فى الأربعين الصغرى (٤٩) من طريق يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم ، عن عامر بن سعد ، عن العباسى بن عبد المطلب رضى الله عنه به .

(١٧١) سورة النساء : الآية ٦٥ .

(١٧٢) سورة التوبة : الآية ٥٩ .

(١٧٣) سورة محمد : الآية ٢٨ .

كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾(١٧٤) .

ومن « **النوع الأول** » ما رواه أحمد والترمذى وغيرهما عن سعد عن النبى ﷺ أنه قال : « من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله له . ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته لله وسخطه بما يقسم الله له »(١٧٥) .

وأما « **الرضا بالمنهيات** » من الكفر والفسوق والعصيان فأكثر العلماء يقولون لا يشرع الرضا بها ، كما لا تشرع محبتها .

فإن الله سبحانه لا يرضاها ولا يحبها ، وإن كان قد قدرها وقضاها كما قال سبحانه : ﴿ **والله لا يحب الفساد** ﴾(١٧٦) وقال تعالى : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾(١٧٧) وقال تعالى : ﴿ **وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول** ﴾(١٧٨) ؛ بل يسخطها كما قال تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم** ﴾(١٧٩) .

وقالت طائفة ترضى من جهة كونها مضافة إلى الله خلقاً وتسخط من جهة كونها مضافة إلى العبد فعلاً وكسباً . وهذا [القول] لا ينافى الذى قبله بل هما يعودان إلى أصل واحد . وهو سبحانه [إنما] قدر الأشياء [وكونها](١٨٠) لحكمة .

---

(١٧٤) سورة التوبة : الآية ٥٤ .

(١٧٥) أخرجه الترمذى (٢١٥١) وأحمد (١٦٨/١) والحاكم (٥١٨/١) من طريق محمد بن أبى حميد عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه عن جدة سعد بن أبى وقاص ضعفه الشيخ الألبانى فى الضعيفة (١٩٠٦) .

(١٧٦) سورة البقرة : الآية ٢٠٥ .

(١٧٧) سورة الزمر : الآية ٧ .

(١٧٨) سورة النساء : الآية ١٠٨ .

(١٧٩) سورة محمد : الآية ٢٨ .

(١٨٠) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط ليس موجوداً فى الطبعتين .

فهى باعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية ، وقد تكون فى نفسها مكروهة ومسخوطة . إذ الشيء الواحد يجتمع فيه وصفان يحب من أحدهما ويكره من الآخر ، كما فى الحديث الصحيح : « ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه »(١٨١) .

وأما من قال بالرضا بالقضاء الذى هو وصف الله [وفعله] لا بالمقضى الذى هو مفعوله ، فهو خروج منه عن مقصود الكلام . فإن الكلام ليس فى الرضا فيما يقوم بذات الرب تعالى من صفاته وأفعاله ، وإنما الكلام فى الرضا بمفعولاته والكلام فيما يتعلق بهذا قد بيناه فى غير هذا الموضع .

[من كمال الرضا الحمد]

والرضا وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد ، حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضا ؛ ولهذا جاء فى الكتاب والسنة حمد لله على كل حال وذلك يتضمن الرضا بقضائه . وفى الحديث : « أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله فى السراء والضراء »(١٨٢) وروى عن النبى ﷺ « أنه كان إذا أتاه الأمر يسره قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وإذا أتاه الأمر الذى يسوءه قال : الحمد لله على كل حال »(١٨٣) .

---

(١٨١) سبق تخريجه والكلام عليه رقم (٣) .

(١٨٢) أخرجه الحاكم (٥٠٢/١) والطبرانى فى الصغير (٢٨٨) وأبو نعيم فى الحلية (٦٩/٥) والبغوى فى « شرح السنة » (٥٠/٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعاً ضعفه الألبانى فى الضعيفة (٦٣٢) .

وأخرجه ابن المبارك فى الزهد (٢٠٦) عن ابن جبير موقوفاً عليه .

قال الألبانى فى الضعيفة (٩٤/٢) : إسناده صحيح ولعل الموقوف هو الصواب .

(١٨٣) أخرجه ابن ماجة (٣٨٠٣) وابن السنى (٣٨٠) والحاكم (٤٩٩/١) من حديث عائشة رضى الله عنها . وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم ٤٦٤٠ .

وفى مسند الإمام أحمد عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : « إذا قبض ولد العبد يقول الله لملائكته : أقبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : أقبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول : ابنوا لعبدى بيتاً فى الجنة ، وسموه بيت الحمد »(١٨٤) .

ونبينا محمد ﷺ هو صاحب لواء الحمد ، وأمته هم الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء . والحمد على الضراء يوجبه مشهدان :

(**أحدهما**) : علم العبد بأن الله سبحانه مستوجب لذلك ، مستحق له لنفسه ؛ فإنه أحسن كل شىء خلقه ، وأتقن كل شىء ، وهو العليم الحكيم . الخبير الرحيم .

و (**الثانى**) : علمه بأن اختيار الله لعبده المؤمن ، خير من اختياره لنفسه ، كما روى مسلم فى صحيحه وغيره عن النبى ﷺ أنه قال : « والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »(١٨٥) .

فأخبر النبى ﷺ أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذى يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له .

---

(١٨٤) أخرجه الترمذى (١٠٢١) والبيهقى (٦٨/٤) والبغوى (٤٥٦/٤) وأحمد (٤١٥/٤) وابن حبان (٢٩٣٧) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع برقم ٧٩٥ .

ولفظ أحمد [قال الله تعالى : يا ملك الموت قبضت ولد عبدى قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده قال : نعم قال : فما قال : قال حمدك واسترجع قال ابنوا له ...] .

(١٨٥) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضى الله عنه .

قال تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾[١٨٦] .

وذكرهما فى أربعة مواضع من كتابه .

فأما من لا يصبر على البلاء ، ولا يشكر على الرخاء ، فلا يلزم أن يكون القضاء خيراً له . ولهذا [أجيب] من أورد هذا على ما يقضى على المؤمن من المعاصى بجوابين .

(**أحدهما**) : أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد لا ما فعله العبد ، كما (فى) قوله تعالى : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله** ﴾[١٨٧] أى من سراء ﴿ **وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ أى من ضراء . وكقوله تعالى : ﴿ **وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون** ﴾[١٨٨] أى بالسراء والضراء كما قال تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** ﴾[١٨٩] وقال تعالى : ﴿ **إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها** ﴾[١٩٠] فالحسنات والسيئات يراد بها المسار والمضار ، ويراد بها الطاعات والمعاصى .

(**والجواب الثانى**) إن هذا فى حق المؤمن الصبار الشكور . **والذنوب تنقص الإيمان** ، فإذا تاب العبد أحبه الله ، وقد ترتفع درجته بالتوبة . **قال بعض السلف** : كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، فمن قضى له بالتوبة كان كما قال **سعيد بن جبير** : إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة . وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينه ويعجب بها ،

---

(١٨٦) سورة إبراهيم : الآية ٥ ، وفى سورة لقمان الآية ٣١ ، وفى سورة سبأ الآية : ١٩ ، وفى سورة الشورى الآية : ٣٣ .

(١٨٧) سورة النساء : الآية ٧٩ .

(١٨٨) سورة الأعراف : الآية ١٦٨ .

(١٨٩) سورة الأنبياء : الآية ٣٥ .

(١٩٠) سورة آل عمران : الآية ١٢٠ .

ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب إليه منها وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « الأعمال بالخواتيم »(١٩١) .

[علامات التوبة النصوح]

والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب :

(١) أن يتوب فيتوب الله عليه ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له . (٢) أو يستغفر فيغفر له . (٣) أو يعمل حسنات تمحوها فإن الحسنات يذهبن السيئات . (٤) أو يدعو له أخوانه المؤمنون ويستغفرون له حياً وميتاً . (٥) أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به . (٦) أو يشفع فيه نبيه محمد ﷺ . (٧) أو يبتليه الله تعالى فى الدنيا بمصائب تكفر عنه . (٨) أو يبتليه فى البرزخ بالصعقة فيكفر بها عنه . (٩) أو يبتليه فى عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه . (١٠) أو يرحمه أرحم الراحمين .

فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه ، كما قال تعالى فيما يروى عنه رسوله ﷺ : « يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »(١٩٢) .

[فإذا] كان المؤمن يعلم أن القضاء خير له إذا كان صبارًا شكوراً ، أو كان قد استخار الله وعلم أن من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله له كان قد رضى بما هو خير له .

وفى الحديث الصحيح عن على رضى الله عنه قال : « إن الله يقضى بالقضاء فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط »(١٩٣) .

---

(١٩١) أخرجه البخارى (٦٤٩٣،٦٦٠٧/فتح) من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه .

(١٩٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه .

(١٩٣) عزاه الهندى فى كنز العمال (٨٥٣٩) إلى ابن عساكر موقوفاً على علىّ بلفظ (من رضى بقضاء الله جرى عليه وكان له أجرٌ ومن لم يرض بقضاء الله جرى وحبط عمله) .

ففى هذا الحديث الرضا والاستخارة ، فالرضا بعد القضاء والاستخارة قبل القضاء ، وهذا أكمل من الضراء والصبر ، فلهذا ذكر فى ذاك الرضا ، وفى هذا الصبر .

ثم إذا كان القضاء مع الصبر خيراً له فكيف مع الرضا ، ولهذا جاء فى الحديث « المصاب من حرم الثواب » فى الأثر الذى رواه الشافعى فى مسنده : « أن النبى ﷺ لما مات سمعوا قائلاً يقول : يا آل بيت رسول الله ﷺ إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفا من كل هالك ، ودركا من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا . فإن المصاب من حرم الثواب »[(١٩٤)] ولهذا لم يؤمر بالحزن المنافى للرضا قط ، مع أن لا فائدة فيه ، فقد يكون فيه مضرة لكنه يعفى عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله .

لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب ، وذلك لا ينافى الرضا ؛ بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه ، وبهذا يعرف معنى قول النبى ﷺ

---

(١٩٤) أخرجه الشافعى فى مسنده (ص ٣٦١) : وفيه القاسم بن عبد الله بن عمر : قال الحافظ فى التقريب : متروك ورماه أحمد بالكذب ، وفيه انقطاع .

وأخرجه ابن أبى الدنيا فى الهواتف (٨) من طريق محمد بن صالح القرشى حدثنى محمد ابن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن على بن الحسين عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وإسناده ضعيف من أجل محمد بن صالح القرشى ، ضعفه ابن الجوزى ، وقال الذهبى : روى عنه أسهل بن سهل حديثاً كذباً . ولم يوثقه سوى ابن حبان . انظر الميزان (٥٨٢/٣) وفى سنده محمد بن جعفر تكلم فيه ، وسكت عنه أبو حاتم : انظر الميزان (٥٠٠/٣) والجرح والتعديل (١٠٣/٥) .

وأخرجه ابن أبى الدنيا فى الهواتف (٩) من طريق خارجة بن مصعب عن زيد بن أسلم عن سويد بن غفلة عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وإسناده ضعيف جداً : فى سنده خارجة بن مصعب . أبو الحجاج السرخسى ، متروك ، وكان يدلس عن الكذابين وأخرجه ابن أبى الدنيا فى الهواتف (١٠) من طريق صالح المروزى عن حازم المدينى إسناده منقطع وهو من أقسام الحديث الضعيف حيث أن صالحاً لم يدرك حازم بن حرملة . انظر الجرح والتعديل (٤١٥/٤ ، ٢٧٨/٣) .

لما بكى على الميت وقال : « إن هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء »[195] فإن هذا ليس كبكاء من يبكى لحظه لا لرحمة الميت ؛ فإن **الفضيل بن عياش** لما مات ابنه على فضحك وقال : رأيت أن الله قد قضى فأحببت أن أرضى بما قضى الله به : حاله حال حسن بالنسبة إلى أهل الجزع . وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله تعالى ، كحال النبى ﷺ فهذا أكمل . كما قال تعالى : ﴿ **ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة** ﴾[196] فذكر سبحانه التواصى بالصبر والمرحمة .

والناس « أربعة أقسام » : (١) منهم من يكون فيه صبر بقسوة (٢) ومنهم من يكون فيه رحمة بجـزع . (٣) ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع . (٤) والمؤمن المحمود الذى يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس .

وقد ظن طائفة من المصنفين فى هذا الباب أن الرضا عن الله من توابع المحبة له ، وهذا إنما يتوجه على « المأخذ الأول » وهو الرضا عنه لاستحقاقه ذلك بنفسه ، مع قطع العبد النظر عن حظه ، بخلاف « المأخذ الثانى » وهو الرضا لعلمه بأن المقضى خير له ، ثم إن المحبة متعلقة به والرضا متعلق بقضائه ، لكن قد يقال فى تقرير ما قال المصنف ونحوه . إن المحبة لله نوعان : محبة له نفسه ، ومحبة له لما فيه من الإحسان ، وكذلك الحمد له نوعان : حمد له على ما يستحقه نفسه ، وحمد على إحسانه إلى عبده ، فالنوعان للرضا كالنوعين للمحبة .

وأما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من حظ المحبة .

ولهذا ذكر النبى ﷺ ذوق طعم الإيمان ، كما ذكر فى المحبة وجود حلاوة الإيمان . وهذان الحديثان الصحيحان هما أصل فيما يذكر من الوجد والذوق الإيمانى الشرعي ؛ دون الضلالى البدعى . ففى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه

---

(١٩٥) أخرجه البخارى (١١٨/١٠) ومسلم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه .

(١٩٦) سورة البلد : الآية ٢٧ .

قال : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا »[١٩٧] وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار »[١٩٨] . وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول .

فصـــل
[محبة الله ورسوله ﷺ]

محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده ؛ بل هى أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين ، كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان ، والدين ، **فإن كل حركة فى الوجود إنما تصدر عن محبة** : إما عن محبة محمودة ، أو عن محبة مذمومة ، كما قد بسطنا ذلك فى « قاعدة المحبة » من القواعد الكبار .

فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة . وأصل المحبة المحمودة هى محبة الله سبحانه وتعالى ، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملا صالحاً ، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله ؛ فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو كله للذى أشرك »[١٩٩] .

---

(١٩٧) سبق تخريجه رقم : ١٧٠ .
(١٩٨) أخرجه البخارى (١/١٠) ومسلم (١/٦٦/عبد الباق) من حديث أنس - رضى الله عنه - .
(١٩٩) أخرجه مسلم (٤٩٨٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وثبت فى الصحيح حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار : « القارىء المرائى ، والمجاهد المرائى والمتصدق المرائى »(٢٠٠) .

بل إخلاص الدين لله هو الدين الذى لا يقبل الله سواه، وهو الذى بعث به الأولين والآخرين من الرسل ، وأنزل به جميع الكتب ، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان ، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية ، وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه .

قال تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص** ﴾(٢٠١) والسورة كلها عامتها فى هذا المعنى . كقوله : ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾(٢٠٢) إلى قوله : ﴿ **قل الله أعبد مخلصاً له دينى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه** ﴾(٢٠٣) إلى قوله : ﴿ **قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره** ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ **أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولوا كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ، وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾(٢٠٤) .

وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وإبليس أنه قال: ﴿**فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾(٢٠٥) وقال تعالى : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم**

---

(٢٠٠) أخرجه مسلم (١٩٠٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .
(٢٠١) أول الزمر ، وأول غافر وأول الجاثية ، والأحقاف .
(٢٠٢) سورة الزمر : الآية ١١ .
(٢٠٣) سورة الزمر : الآية ١٤ .
(٢٠٤) سورة الزمر : الآية ٤٣ .
(٢٠٥) سورة ص : الآية ٨٢ .

سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾(٢٠٦) وقال : ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾(٢٠٧) فبين أن سلطان الشيطان وإغواءه إنما هو لغير المخلصين : ولهذا قال فى قصة يوسف : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾(٢٠٨) وأتباع الشيطان هم أصحاب النار ، كما قال تعالى : ﴿ **لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين** ﴾(٢٠٩) .

وقد قال سبحانه : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾(٢١٠) وهذه الآية فى حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة ، فأخبر أنه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه وما دونه يغفر لمن يشاء . وأما قوله : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾(٢١١) فتلك فى حق التائبين ؛ ولهذا عم وأطلق ، وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها .

وقد أخبر سبحانه أن الأولين والآخرين إنما أمروا بذلك فى غير موضع كالسورة التى قرأها النبى ﷺ على أُبَيٍّ لما أمره الله تعالى أن يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال : ﴿ **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾(٢١٢) الآية .

---

(٢٠٦) سورة الحجر : الآية ٤٢ .
(٢٠٧) سورة النحل : الآية ٩٩ .
(٢٠٨) سورة يوسف : الآية ٢٤ .
(٢٠٩) سورة ص : الآية ٨٥ .
(٢١٠) سورة النساء : الآية ٤٨ ، ١١٦ .
(٢١١) سورة الزمر : الآية ٥٣ .
(٢١٢) سورة البينة : الآية ٤ .

وهذا حقيقة قول لا إله إلا الله . وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[٢١٣] وقال : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾[٢١٤] وقال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[٢١٥] .

وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل كما قال نوح عليه السلام : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾[٢١٦] وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ لاسيما أفضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا إبراهيم ومحمداً عليهما السلام ، فإن هذا الأصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما ، فإبراهيم هو الإمام الذى قال الله فيه : ﴿ **إنى جاعلك للناس إماما** ﴾[٢١٧] وفى ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل ، فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم قال سبحانه : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون** ﴾[٢١٨] .

فهذه الكلمة هى كلمة الإخلاص لله وهى البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذى فطرنا كما قال صاحب يس : ﴿ **ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إنى إذا لفى ضلال مبين** ﴾[٢١٩] . وقال تعالى فى قصته بعد أن ذكر

---

(٢١٣) سورة الأنبياء : الآية ٢٥ .
(٢١٤) سورة الزخرف : الآية ٤٥ .
(٢١٥) سورة النحل : الآية ٣٥ .
(٢١٦) سورة الأعراف : الآية ١٢٤ .
(٢١٧) سورة البقرة : الآية ٢٦ .
(٢١٨) سورة الزخرف : الآية ٢٦ .
(٢١٩) سورة يس : الآية ٢٢ .

ما يبين ضلال من اتخذ بعض الكواكب ربا يعبده من دون الله ، قال : ﴿ **فلما أفلت قال ياقوم إني برىء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا** ﴾[٢٢٠] وقال إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿ **أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ، الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين** ﴾[٢٢١] وقال تعالى : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم** ﴾[٢٢٢] الآية .

ونبينا ﷺ هو الذي أقام الله به الدين الخالص لله دين التوحيد ، وقمع به المشركين من كان مشركا في الأصل ، ومن الذين كفروا من أهل الكتب .

وقال ﷺ فيما رواه الإمام أحمد وغيره « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم »[٢٢٣] ، وقد تقدم بعض ما أنزل الله عليه من الآيات المتضمنة للتوحيد .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ **والصافات صفا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إن إلهكم لواحد** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون** ﴾ إلى ما ذكره من قصص

---

(٢٢٠) سورة الأنعام : الآية ٧٨ .

(٢٢١) سورة الشعراء : الآية ٧٥ .

(٢٢٢) سورة الممتحنة : الآية ٤ .

(٢٢٣) أخرجه أحمد (٢/٥٠) وعبد بن حميد في المنتخب (٨٤٨) وابن أبي شيبة (٥/٣١٣) من حديث عبد الله بن عمر . وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٨٣١ . وقد شرحه ابن رجب رحمه الله في رسالة مستقلة .

الأنبياء فى التوحيد وإخلاص الدين لله ، إلى قوله : ﴿ **سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين** ﴾[٢٢٤] وقال تعالى : ﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيماً** ﴾[٢٢٥] .

وفى الجملة فهذا الأصل فى سورة الأنعام والأعراف والنور وآل طسم وآل حم وآل المر وسورة المفصل وغير ذلك من السور المكية ومواضع من السور المدنية كثير ظاهر ، فهو أصل الأصول وقاعدة الدين حتى فى سورتى الإخلاص : ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ و ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ . وهاتان السورتان . كان النبى ﷺ يقرأ بهما فى صلاة التطوع كركعتى الطواف ، وسنة الفجر ، وهما متضمنتان للتوحيد .

فأما ﴿**قل ياأيها الكافرون**﴾ فهى متضمنة للتوحيد العملى الإرادى ، وهو إخلاص الدين لله بالقصد والإرادة ، وهو الذى يتكلم به مشائخ التصوف غالباً . وأما سوْرة ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ فمتضمنة للتوحيد القولى العملى كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة « أن رجلا كان يقرأ : قل هو الله أحد فى صلاته . فقال النبى ﷺ : سلوه لم يفعل ذلك ؟ فقال : لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها فقال أخبروه أن الله يحبه »[٢٢٦] .

ولهذا تضمنت هذه السورة من وصف الله سبحانه وتعالى الذى ينفى قول أهل التعطيل وقول أهل التمثيل ، ما صارت به هى الأصل المعتمد فى مسائل الذات كما قد بسطنا ذلك فى غير هذا الموضع .

---

(٢٢٤) سورة الصافات : الآية ١٥٩ و ١٦٠ .

(٢٢٥) سورة النساء : الآية ١٤٥ .

(٢٢٦) أخرجه البخارى (١٣/٣٤٨/فتح) ومسلم (٨١٣) من حديث عائشة رضى الله عنها .

وذكرنا اعتماد الأئمة عليها مع ما تضمنته من تفسير الأحد الصمد كما جاء تفسيره عن النبى ﷺ والصحابة والتابعين ، وما دل على ذلك من الدلائل .

لكن المقصود هنا هو « التوحيد العملى » وهو إخلاص الدين لله وإن كان أحد النوعين مرتبطاً بالآخر . فلا يوجد أحد من أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة إلا وفيه نوع من الشرك العملى ، إذ أصل قولهم فيه شرك وتسوية بين الله وبين خلقه ، أو بينه وبين المعدومات كما يسوى المعطلة بينه وبين المعدومات فى الصفات السلبية التى لا تستلزم مدحا ولا ثبوت كمال ، أو يسوون بينه وبين الناقص من الموجودات من صفات النقص ، وكما يسوون إذا أثبتوا هم ومن ضاهاهم من الممثلة بينه وبين المخلوقات فى حقائقها حتى قد يعبدونها فيعدلون بربهم ويجعلون له أنداداً ويسوون المخلوقات برب العالمين .

واليهود كثيراً ما يعدلون الخالق بالمخلوق ويمثلونه به حتى يصفوا الله بالعجز والفقر والبخل ونحو ذلك من النقائص التى يجب تنزيهه عنها وهى من صفات خلقه .

والنصارى كثيراً ما يعدلون المخلوق بالخالق حتى يجعلوا فى المخلوقات من نعوت الربوبية وصفات الإلهية ويجوزون له مالا يصلح إلا للخالق سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

والله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وقد قال النبى ﷺ « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون »(٢٢٧) وفى هذه الأمة من فيه شبه من هؤلاء وهؤلاء كما قال النبى ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب

---

(٢٢٧) أخرجه الترمذى (٢٩٥٤) من حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه مرفوعاً . بلفظ (اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضلال) وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع برقم ٨٢٠٢ .

لدخلتموه ، قالوا : يارسول الله : اليهود والنصارى ، قال فمن »[٢٢٨] والحديث في الصحيحين .

فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله ، وهو إرادة الله وحده فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته ، وهذا كمال المحبة ، لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة كقوله : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[٢٢٩] وقوله : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم** ﴾[٢٣٠] وأمثال هذا ، والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته ، وكمال الذل ونهايته ؛ فالمحبوب الذى لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبوداً ، والمعظم الذى لا يحب لا يكون معبوداً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾[٢٣١] فبين سبحانه أن المشركين بربهم الذى يتخذون من دون الله أنداداً ، وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله ، فالذين آمنوا أشد حباً لله منهم لله ولأوثانهم : لأن المؤمنين أعلم بالله ، والحب يتبع العلم ، ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده ، وأولئك جعلوا بعض حبهم لغيره وأشركوا بينه وبين الأنداد فى الحب ، ومعلوم أن ذلك أكمل . قال تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾[٢٣٢] .

واسم المحبة فيه إطلاق وعموم فإن المؤمن يحب الله ويحب رسله وأنبياءه وعباده المؤمنين ، وإن كان ذلك من محبة الله ، وإن كانت المحبة التى لله

---

(٢٢٨) أخرجه البخارى (٧٢٢٠) ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢٢٩) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٢٣٠) سورة البقرة : الآية ٢١ .

(٢٣١) سورة البقرة : الآية ١٦٥ .

(٢٣٢) سورة الزمر : الآية ٢٩ .

لا يستحقها غيره ، ولهذا جاءت محبة الله سبحانه وتعالى مذكورة بما يختص به سبحانه من العبادة والإنابة إليه والتبتل له ؛ ونحو ذلك . فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالى .

ثم إنه كما بين أن محبته أصل الدين ، فقد بين أن كمال الدين بكمالها ونقصه بنقصها ، فإن النبى ﷺ قال : « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله »(٢٣٣) . فأخبر أن الجهاد ذروة سنام العمل وهو أعلاه وأشرفه . وقد قال تعالى : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أجر عظيم** ﴾(٢٣٤) ، والنصوص فى فضائل الجهاد وأهله كثيرة .

وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد ، والجهاد دليل المحبة الكاملة . قال تعالى : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم** ﴾(٢٣٥) الآية . وقال تعالى فى صفة المحبين المحبوبين : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم** ﴾(٢٣٦) **فوصف المحبوبين المحبين بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، وأنهم يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم .**

فإن المحبة مستلزمة للجهاد ، لأن المحب يحب ما يحب محبوبه ، ويبغض ما يبغض محبوبه ، ويوالى من يواليه ويعادى من يعاديه ؛ ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، ويأمر بما يأمر به وينهى عما ينهى عنه فهو موافق له فى ذلك . وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم ويغضب لغضبهم ، إذ هم إنما يرضون

---

(٢٣٣) أخرجه الترمذى (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣) وأحمد (٢٣١/٥) من حديث معاذ رضى الله عنه . وصححه الألبانى فى صحيحى سنن الترمذى (٢١١٠) وابن ماجة (٣٢٠٩).

(٢٣٤) سورة التوبة : الآية ١٩ .

(٢٣٥) سورة التوبة : الآية ٢٤ .

(٢٣٦) سورة المائدة : الآية ٥٤ .

لرضاه ويغضبون لما يغضب له ، كما قال النبي ﷺ لأبي بكر فى طائفة فيهم صهيب وبلال : « لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك . فقال لهم : يا إخوتى ! هل أغضبتكم قالوا لا ؛ يغفر الله لك يا أبا بكر[٢٣٧] ! » وكان قد مر بهم أبو سفيان بن حرب فقالوا: ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها ، فقال لهم أبو بكر : أتقولون هذا لسيد قريش ؟ وذكر أبو بكر ذلك للنبى ﷺ فقال له ما تقدم ؛ لأن أولئك إنما قالوا ذلك غضباً لله لكمال ما عندهم من الموالاة لله ورسوله ، والمعاداة لأعداء الله ورسوله .

ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث ا لصحيح فيما يروى عن ربه : « لا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ؛ ويده التى يبطش بها ؛ ورجله التى يمشى بها ؛ فبى يسمع ؛ وبى يبصر ؛ وبى يبطش ؛ وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن : يكره الموت وأنا أكره مساءته ولابد له منه »[٢٣٨] . فبين سبحانه أنه يتردد لأن التردد تعارض إرادتين ، وهو سبحانه يحب ما يحب عبده ويكره ما يكره ، وهو يكره الموت فهو يكرهه ، كما قال وأنا أكره مساءته ؛ وهو سبحانه قد قضى بالموت فهو يريد أن يموت ، فسمى ذلك تردداً ثم بين أنه لابد من وقوع ذلك .

[الرد على الحلولية]

وهذا اتفاق واتحاد فى المحبوب المرضى المأمور به والمبغض المكروه المنهى عنه . وقد يقال له اتحاد نوعى وصفى ، وليس ذلك اتحاد الذاتين فإن ذلك محال ممتنع ، والقائل به كافر ، وهو قول النصارى والغالية من الرافضة والنساك كالحلاجية ونحوهم ، وهو « الاتحاد المقيد » فى شىء بعينه .

---

(٢٣٧) أخرجه مسلم (٢٥٠٤) من حديث عائذ بن عمرو رضى الله عنه .

(٢٣٨) سبق تخريجه والكلام عليه رقم (٣) .

وأما « الاتحاد المطلق » الذى هو قول أهل وحدة الوجود الذين يزعمون أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق ، فهذا تعطيل للصانع وجحود له ، وهو جامع لكل شرك ؛ فكما أن الاتحاد نوعان ، فكذلك الحلول نوعان : قوم يقولون : بالحلول المقيد فى بعض الأشخاص ، وقوم يقولون : بحلول فى كل شيء ، وهم الجهمية الذين يقولون : إن ذات الله فى كل مكان .

وقد يقع لبعض المصطلمين من أهل الفناء فى المحبة أن يغيب بمحبوبه عن نفسه وحبه ؛ ويغيب بمذكوره عن ذكره ؛ وبمعروفه عن معرفته ، وبموجوده عن وجوده ؛ حتى لا يشهد إلا محبوبه فيظن فى زوال تمييزه ونقص عقله وسكره أنه هو محبوبه . كما قيل : أن محبوباً وقع فى اليم فألقى المحب نفسه خلفه ؛ فقال أنا وقعت فأنت ما الذى أوقعك . فقال ، غبت بك عنى ، فظننت أنك أنى ، فلا ريب أن هذا خطأ وضلال .

لكن إن كان هذا لقوة المحبة والذكر من غير أن يحصل عن سبب محظور زال به عقله كان معذوراً فى زوال عقله ؛ فلا يكون مؤاخذاً بما يصدر منه من الكلام فى هذه الحال التى زال فيها عقله بغير سبب محظور ؛ كما قيل فى عقلاء المجانين : إنهم قوم آتاهم الله عقولاً وأحوالاً فسلب عقولهم وأبقى أحوالهم ، وأسقط ما فرض بما سلب .

وأما إذا كان السبب الذى به زوال العقل محظوراً لم يكن السكران معذوراً ؛ وإن كان لا يحكم بكفره فى أصح القولين ، كما لا يقع طلاقه فى أصح القولين ، وإن كان النزاع فى الحكم مشهوراً .

وقد بسطنا الكلام فى هذا ؛ وفيمن يسلم له حاله ومن لا يسلم فى « قاعدة » ذلك .

وبكل حال ؛ فالفناء الذى يفضى بصاحبه إلى مثل هذا حال ناقص ؛ وإن كان صاحبه غير مكلف ، ولهذا لم يرد مثل هذا عن الصحابة الذين هم أفضل هذه الأمة ولا عن نبينا محمد ﷺ وهو أفضل الرسل ، وإن كان لهؤلاء فى صعق

موسى نوع تعلق ، وإنما حدث زوال العقل عند الواردات الإلهية على بعض التابعين ومن بعدهم .

وإن كانت المحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب فى محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته ، فمن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلابد أن يبغض أعداءه ، ولابد أن يحب ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾(٢٣٩) .

والمحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم وعذل العاذل ، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة ، كما قد قال أكثر الشعراء فى ذلك ، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه من جهاد أعدائه ، فإن الملام على ذلك كثير . وأما الملام على فعل ما يكرهه الله أو ترك ما أحبه فهو لوم بحق ، وليس من المحمود الصبر على هذا الملام . بل الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل . وبهذا يحصل الفرق بين « الملامية » الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم فى ذلك ، وبين « الملامية » الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام فى ذلك .

فصـــل

[الخوف والرجاء والرد على من يدعى أنه يعبد ليس شوقا إلى جنته ولا خوفاً من ناره]

وإذا كانت المحبة أصل كل عمل دينى ، فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها ، فإن الراجى الطامع إنما يطمع فيما يحبه لافيما يبغضه . والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب . قال تعالى : ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾(٢٤٠)

(٢٣٩) سورة الصف : الآية ٤ .
(٢٤٠) سورة الإسراء : الآية ٥٧ .

الآية . وقال : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله** ﴾[٢٤١] .

و « **رحمته** » اسم جامع لكل خير . « **وعذابه** » اسم جامع لكل شر . **ودار الرحمة الخالصة** هى الجنة ، **ودار العذاب الخالص** هى النار ، **وأما الدنيا** فدار امتزاج ، فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة فالجنة اسم جامع لكل نعيم وأعلاه النظر إلى وجه الله ، كما فى صحيح مسلم عن ثابت[٢٤٢] عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب عن النبى ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد . يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ؟ ألم يثقل موازيننا ويدخلنا الجنة وينجينا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه »[٢٤٣] وهو الزيادة .

ومن هنا يتبين زوال الاشتباه فى قول من قال : ما عبدتك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك ؛ وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك ، فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل فى مسماها إلا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات ، كما يوافقه على ذلك من ينكر رؤية الله من الجهيمة ، أو من يقربها ويزعم أنه لا تمتع بنفس رؤية الله ، كما يقوله طائفة من المتفقهة ، فهؤلاء متفقون على أن مسمى الجنة والآخرة لا يدخل فيه إلا التمتع بالمخلوقات ؛ ولهذا قال بعض من غلط من المشائخ لما سمع قوله : ﴿ **منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة** ﴾[٢٤٤] قال فأين من يريد الله ، وقال آخر فى قوله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم**

(٢٤١) سورة البقرة : الآية ٢١٨ .

(٢٤٢) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط ليس موجوداً فى الطبعتين .

(٢٤٣) أخرجه مسلم (١٨١) والترمذى (٢٥٥٥) وابن ماجة (١٨٧) وأحمد (٣٣٢/٤ ، ٣٣٣) من حديث صهيب رضى الله عنه واللفظ لغير مسلم .

(٢٤٤) سورة آل عمران : الآية ١٥٢ .

الجنة ﴾[245] قال إذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر إليه ، وكل هذا لظنهم أن الجنة لا يدخل فيها النظر .

و « **التحقيق** » **أن الجنة هى الدار الجامعة لكل نعيم** ، وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله ، وهو من النعيم الذى ينالونه فى الجنة ؛ كما أخبرت به النصوص وكذلك أهل النار فإنهم محجوبون عن ربهم ، يدخلون النار ، مع أن قائل هذا القول إذا كان عارفاً بما يقول فإنما قصده أنك لو لم تخلق ناراً أو لو لم تخلق جنة لكان يجب أن تعبد ويجب التقرب إليك والنظر إليك ، ومقصوده بالجنة هنا ما يتمتع فيه المخلوق .

وأما عمل الحى بغير حب ولا إرادة أصلا فهذا ممتنع وإن تخيله بعض الغالطين من النساك ، وظن أن كمال العبد أن لا تبقى له إرادة أصلا فذاك لأنه تكلم فى حال الفناء والفانى – الذى يشتغل بمحبوبه – له إرادة ومحبة ولكن لا يشعر بها ، فوجود المحبة شيء ، والإرادة شيء ، والشعور بها شيء آخر . فلما لم يشعروا بها ظنوا انتفاءها وهو غلط ؛ فالعبد لا يتصور أن يتحرك قط إلا عن حب وبغض وإرادة ، ولهذا قال النبى ﷺ « أصدق الأسماء حارث وهمام »[246] فكل

---

(٢٤٥) سورة التوبة : الآية ١١١ .

(٢٤٦) قال الشيخ الألبانى فى صحيحته (٣٤/٣) : رواه ابن وهب فى الجامع (ص ٧) : أخبرنى داود بن قيس عن عبد الوهاب ابن بُخْتٌ مرفوعاً .

قلت : – أى الشيخ الألبانى – وهذا إسناد مرسل صحيح رجاله ثقات رجال مسلم .

وقد أخرجه ابن وهب أيضاً من رواية عبد الله بن عامر اليحصبى عن النبى ﷺ مرسلاً .

وإسناده صحيح أيضاً .

وللحديث شاهد موصول من طريق عقيل بن شبيب عن أبى وهب الجشمى – وكانت له صحبة – قال : قال رسول الله ﷺ فذكره فى آخر حديث أوله « تسموا بأسماء الأنبياء .... » .

فالحديث بهذا الشاهد ثابت إن شاء الله تعالى انتهى كلام الشيخ الألبانى .

إنسان له حرث وهو العمل ، وله هم وهو أصل الإرادة ولكن تارة يقوم بالقلب من محبة الله ما يدعوه إلى طاعته ، ومن إجلاله والحياء منه ما ينهاه عن معصيته كما قال عمر رضى الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه أى هو لم يعصه ولو لم يخفه فكيف إذا خافه ، فإن إجلاله وإكرامه لله يمنعه من معصيته .

فالراجى الخائف إذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه والتنعيم بتجليه له معلوم أن هذا من توابع محبته له ، فالمحبة هى التى أوجبت محبة التجلى والخوف من الاحتجاب ، وإن تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب بمخلوق والتنعم به فهذا إنما يطلب ذلك بعبادة الله المستلزمة محبته ، ثم إذا وجد حلاوة محبة الله وجدها أحلى من كل محبة ؛ ولهذا يكون اشتغال أهل الجنة بذلك أعظم من كل شيء . كما فى الحديث « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس »(٢٤٧) وهو يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته . فالخوف من التعذب بمخلوق والرجاء له يسوقه إلى محبة الله التى هى الأصل .

وهذا كله ينبنى على « أصل المحبة » فيقال قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبة العباد المؤمنين ، كما فى قوله : ﴿ **والذين آمنوا أشد حبا لله** ﴾(٢٤٨) وقوله تعالى : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾(٢٤٩) وقوله تعالى : ﴿ **أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله** ﴾(٢٥٠) وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار »(٢٥١)

---

(٢٤٧) أخرجه مسلم (٢٨٣٥) وأبو داود (٤٧٤١) وأحمد (٣١٦/٣) والدارمى (٣٣٥/٢) وأبو نعيم فى « صفـة الجنة » (٢٧٤) من حديث جابر رضى الله عنه .

(٢٤٨) سورة البقرة : الآية ١٦٥ .

(٢٤٩) سورة المائدة : الآية ٥٤ .

(٢٥٠) سورة التوبة : الآية : ٢٤ .

(٢٥١) سبق تخرجه رقم : ١٩٨ .

بل محبة رسول الله ﷺ وجبت لمحبة الله كما فى قوله تعالى : ﴿ **أحب إليكم من الله ورسوله** ﴾(٢٥٢) وكما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »(٢٥٣) ، وفى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال : « والله يارسول الله لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى ، فقال : لا ياعمر ! حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال والله لأنت أحب إلىّ من نفسى قال : الآن يا عمر »(٢٥٤) .

وكذلك محبة صحابته وقرابته ، كما فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار »(٢٥٥) وقال : « لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر »(٢٥٦) وقال على رضى الله عنه : « إنه لعهد النبى الأمى إلىَّ أنه لا يحبنى إلا مؤمن ، ولا يبغضنى إلا منافق »(٢٥٧) وفى السنن أنه قال للعباس : « والذى نفسى بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتى» يعنى بن هاشم . وقد روى حديث عن ابن عباس

---

(٢٥٢) سورة التوبة : الآية ٢٤ .

(٢٥٣) أخرجه البخارى (١/٥٨ – فتح) ومسلم (١٥) من حديث أنس رضى الله عنه بلفظ (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) وأخرجه البخارى (١/٥٨) والنسائى (٨/١٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ (فو الذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده) .

(٢٥٤) أخرجه البخارى (٦٦٣٢/فتح) من حديث عبد الله بن هشام رضى الله عنه .

(٢٥٥) أخرجه البخارى (١٧) ومسلم (٨٥) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢٥٦) أخرجه مسلم (٧٦) وأحمد (٢/٤١٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وأخرجه مسلم (٧٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢٥٧) أخرجه مسلم (٢/٦٤) والنسائى (٨/١١٥/١١٦) من حديث على رضى الله عنه .

مرفوعا أنه قال : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبونى بحب الله وأحبوا أهل بيتى لأجلى »[(٢٥٨)] .

وأما **محبة الرب سبحانه لعبده** فقال تعالى : ﴿ **واتخذ الله إبراهيم خليلا** ﴾[(٢٥٩)] قال تعالى : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾[(٢٦٠)] وقال تعالى : ﴿ **وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** ﴾[(٢٦١)] ﴿ **وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾[(٢٦٢)] ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين** ﴾[(٢٦٣)] ﴿ **فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين** ﴾[(٢٦٤)] ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾[(٢٦٥)] ﴿ **بل من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين** ﴾[(٢٦٦)] .

وأما **الأعمال التى يحبها الله** من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة ، وكذلك حبه لأهلها وهم المؤمنون أولياء الله المتقون .

وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة [الحديث][(٢٦٧)] ، والذى عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشائخ الدين المتبعون ، وأئمة التصوف أن الله [سبحانه] محبوب لذاته محبة حقيقية ؛ بل هى أكمل

---

(٢٥٨) أخرجه الترمذى (٣٧٨٩) والحاكم (١٤٩/٣) وأبو نعيم فى الحلية (٢١١/٣) والخطيب فى تاريخه (١٦٠/٤) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما – وضعفه الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع برقم ١٧٦ .

(٢٥٩) سورة النساء : الآية ١٢٥ .

(٢٦٠) سورة المائدة : الآية ٥٤ .

(٢٦١) سورة البقرة : الآية ١٩٥ .

(٢٦٢) سورة الحجرات : الآية ٩ .

(٣٦٣) سورة التوبة : الآية ٤ .

(٢٦٤) سورة التوبة : الآية ٧ .

(٢٦٥) سورة الصف : الآية ٤ .

(٢٦٦) سورة آل عمران : الآية ٧٦ .

(٢٦٧) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط وليس فى الطبعتين .

محبة ، فإنها كما قال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾[٢٦٨] وكذلك هو سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية .

وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين ، زعما منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب ، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة ، وكان أول من ابتدع هذا فى الإسلام هم **الجعد بن درهم**[٢٦٩] فى أوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسرى أمير العراق والمشرق بواسط . خطب الناس يوم الأضحى فقال : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ثم نزل فذبحه وكان قد أخذ هذا المذهب عنه **الجهم بن صفوان**[٢٧٠] فأظهره وناظر عليه ، وإليه أضيف قول الجهمية فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان بها ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم أثناء خلافة المأمون ، حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوا إلى الموافقة لهم على ذلك .

وأصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة أهل الكتاب الذين يزعمون أن الرب ليس له صفة ثبوتية أصلا ، وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهم يعبدون الكواكب ويبنون الهياكل

---

(٢٦٨) سورة البقرة الآية : ١٦٥ .

(٢٦٩) الجعد بن درهم : من الموالى مبتدع له أخبار فى الزندقة سكن الجزيرة الفراتية ، وأخذ عنه مروان بن محمد لما ولى الجزيرة فى أيام هشام بن عبد الملك فنسب إليه ، قال ابن الأثير : « كان مروان يلقب بالجعدى لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه فى القول بخلق القرآن والقدر » .

وقال الذهبى « عداده فى التابعين مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر .

(الأعلام / للزركلى ١٢٠/٢)

(٢٧٠) الجهم بن صفوان : أبو محرز جهم صفوان السمرقندى رأس الجهمية ، قال الذهبى : الضال المبتدع . الملك فى زمان صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً (الأعلام/للزركلى ١٤١/٢)

للعقول النجوم وغيرها ، وهم ينكرون فى الحقيقة أن يكون إبراهيم خليلا ، وموسى كليما ، [لأن] الخلة هى كمال المحبة المستغرقة للمحب كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح منى ... وبذا سمى الخليل خليلا

ويشهد لهذا ما ثبت فى الصحيح عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال : « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لأتخذ أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله »(٢٧١) - يعنى نفسه - وفى رواية : « إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته ، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا »(٢٧٢) وفى رواية : « إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا(٢٧٣) ، فبين ﷺ أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلا وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس بها أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

مع أنه ﷺ قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصا كما قال لمعاذ : « والله إنى لأحبك »(٢٧٤) وكذلك قوله للأنصار . وكان زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ : وكذلك ابنه أسامة حبه ، وأمثال ذلك ، وقال له عمرو بن العاص : « أى الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة . قال فمن الرجال . قل أبوها »(٢٧٥) . وقال لفاطمة ابنته رضى الله عنها » ألا تحبين ما أحب ؟ قالت : بلى ! فأحبى

---

(٢٧١) أخرجه البخارى (٣٥٦٤) ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه بلفظ (.... إن أمن الناس على فى ماله وصحبته أبو بكر ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام . لا تبقين فى المسجد خوخةٌ ، إلا خوخة أبى بكر) .

(٢٧٢) أخرجه مسلم (٤/١٨٥٦/عبد الباق) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٢٧٣) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن عبد الله البجلى رضى الله عنه .

(٢٧٤) أخرجه أبو داود (١٥٢٢) والنسائى (٣/٥٣) وأحمد (٥/٢٤٥) وابن حبان (٣/٢٣٤/إحسان) والحاكم (١/٢٧٣) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه . وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع برقم ٧٩٦٩ .

(٢٧٥) أخرجه البخارى (٧/١٨) ومسلم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص رضى الله عنه .

عائشة »[٢٧٦] . وقال للحسن : « اللهم إنى أحبه فأحبه وأحب من يحبه »[٢٧٦] وأمثال هذا كثير .

فوصف نفسه بمحبة أشخاص وقال : « إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا »[٢٧٨] فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة بحيث هى من كمالها وتخللها المحب حتى يكون المحبوب بها محبوباً لذاته لا لشىء آخر . إذ المحبوب لشىء غيره هو مؤخر فى الحب عن ذلك الغير ، ومن كمالها لا تقبل الشركة والمزاحمة لتخللها المحب **ففيها كمال التوحيد وكمال الحب** .

فالخلة تنافى المزاحمة ، وتقدم الغير بحيث يكون المحبوب محبوباً لذاته محبة لا يزاحمه فيها غيره ، وهذه محبة لا تصلح إلا لله ، فلا يجوز أن يشركه غيره فما يستحقه من المحبة ، وهو محبوب لذاته وكل ما يحب غيره – إذا كان محبوبا بحق – فإنما يحب لأجله ، وكل ما أحب لغيره فمحبته باطلة ، فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله تعالى . وإذا كانت الخلة كذلك فمن المعلوم أن من أنكر أن يكون الله محبوبا لذاته ينكر مخاللته . وكذلك أيضاً إن أنكر محبته لأحد من عباده فهو ينكر أن يتخذ خليلا بحيث يحب الرب ويحبه العبد على أكمل ما يصلح للعباد .

وكذلك تكليمه لموسى أنكروه لإنكارهم أن تقوم به صفة من الصفات أو فعل من الأفعال ، فكما ينكرون أن يتصف بحياة أو قدرة أو علم أو أن يستوى أو أن يجىء فكذلك ينكرون أن يتكلم أو يكلم ، فهذا حقيقة قولهم ، ﴿ **كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم** ﴾[٢٧٩] .

---

(٢٧٦) أخرجه البخارى (٥/٢٠٥ – فتح) ومسلم (٢٤٤٢) مطولاً من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢٧٧) أخرجه البخارى (٥٨٨٤) ومسلم (١٨٨٣/١٨٨٢/٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢٧٨) تقدم تخريجه برقم ٢٧١ .

(٢٧٩) سورة البقرة : الآية ١١٨ .

لكن لما كان الإسلام ظاهراً والقرآن متلوا لا يمكن جحده لمن أظهر الإسلام ، أخذوا يلحدون فى أسماء الله ويحرفون الكلم عن مواضعه فتأولوا محبة العباد له بمجرد محبتهم لطاعته أو التقرب إليه ، وهذا جهل عظيم ، فإن محبة المتقرب إلى المتقرب إليه تابع لمحبته وفرع عليه ، فمن لا يحب الشيء لا يمكن أن يحب التقرب إليه ، إذ التقرب وسيلة ، ومحبة الوسيلة تبع لمحبة المقصود ، فيمتنع أن تكون الوسيلة إلى الشيء المحبوب هى المحبوب دون الشيء المقصود بالوسيلة .

وكذلك « العبادة والطاعة » إذا قيل فى المطاع المعبود : أن هذا يجب طاعته وعبادته ، فإن محبته ذلك تبع لمحبته ، وإلا فمن لا يحب لا يجب طاعته وعبادته ، ومن كان لا يعمل لغيره إلا لعوض يناله منه أو لدفع عقوبة فإنه يكون معاوضاً له أو مفتديا منه لا يكون محباً له . ولا يقال إن هذا يحبه ويفسر ذلك بمحبة طاعته وعبادته ، فإن محبة المقصود وإن استلزمت محبة الوسيلة أو غير محبة الوسيلة ، فإن ذلك يقتضى أن يعبر بلفظين **محبة العوض والسلامة عن محبة العمل . أما محبة الله** فلا تعلق لها بمجرد **محبة العوض** ، ألا ترى أن من استأجر أجيراً بعوض لا يقال إن الأجير يحبه بمجرد ذلك ، بل قد يستأجر الرجل من لا يحبه بحال بل من يبغضه ، وكذلك من افتدى نفسه بعمل من عذاب معذب لا يقال إنه يحبه بل يكون مبغضاً له . فعلم أن ما وصف الله به عباده المؤمنين من أنهم يحبونه يمتنع أن لا يكون معناه إلا مجرد محبة العمل الذى ينالون به بعض الأغراض المخلوقة من غير أن يكون ربهم محبوبا أصلا .

وأيضاً فلفظ « العبادة » متضمن للمحبة مع الذل كما تقدم ، ولهذا (كانت محبة القلب)[٢٨٠] للبشر على طبقات[٢٨١] .

أحدها : « **العلاقة** » وهو تعلق القلب بالمحبوب . ثم « **الصبابة** » وهو انصباب القلب إليه . ثم « **الغرام** » وهو الحب اللازم . ثم « **العشق** » وآخر

---

(٢٨٠) فى المخطوط : كان الحب للبشر .

(٢٨١) انظر تفصيل ذلك فى كتاب « روضة المحبين ، ونزهة المشتاقين» للحافظ ابن قيم الجوزية بتهذيب سمير حلبى – ط . دار الصحابة للتراث .

المراتب هو « **التتيم** » وهو التعبد للمحبوب ، والمتيم المعبود ، وتيم الله عبد الله فإن المحب يبقى [قلبه][٢٨٢] ذاكراً معبداً مذللا لمحبوبه .

و (أيضاً) فاسم الإنابة إليه يقتضى المحبة أيضاً ، وما أشبه ذلك من الأسماء كما تقدم .

و(أيضاً) فلو كان هذا الذى قالوه حقاً [من كون] [٢٨٣] ذلك مجازاً لما فيه من الحذف والإضمار ؛ فالمجاز لا يطلق إلا بقرينة تبين المراد .

ومعلوم أن ليس فى كتاب الله وسنة رسوله ما ينفى أن يكون الله محبوباً ، وأن لا يكون المحبوب إلا الأعمال لا فى الدلالة المتصلة ولا المنفصلة بل ولا فى العقل أيضاً و (أيضا) فمن علامات المجاز صحة إطلاق نفيه فيجب أن يصح إطلاق القول بأن الله لا يحب ولا يحب ، كما أطلق إمامهم الجعد بن درهم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، ومعلوم أن هذا ممتنع بإجماع المسلمين ، فعلم دلالة الإجماع على أن هذا ليس مجازاً ، بل هى حقيقة .

و (أيضاً) **فقد فرق بين محبته ومحبة العمل له** فى قوله تعالى : ﴿ **أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله** ﴾[٢٨٤] كما فرق بين محبته ومحبة رسوله فى قوله تعالى : ﴿ **أحب إليكم من الله ورسوله** ﴾ فلو كان المراد بمحبته ليس إلا محبة العمل لكان هذا تكريراً ، [أو] من باب عطف الخاص على العام ، وكلاهما على خلاف ظاهر الكلام الذى لا يجوز المصير إليه إلا بدلالة تبين المراد .

وكما أن محبته لا يجوز أن تفسر بمجرد محبة رسوله ، فكذلك لا يجوز تفسيرها بمجرد محبة العمل له ، وإن كانت محبته تستلزم محبة رسوله ومحبة العمل له .

---

(٢٨٢) ما بين المعكوفتين استدراك من المخطوط ليس موجوداً فى الطبعتين .
(٢٨٣) فى المخطوط : لكان .
(٢٨٤) سورة التوبة : الآية ٢٤ .

و (أيضاً) فالتعبير بمحبة الشيء عن مجرد محبة طاعته لا عن محبة نفسه أمر لا يعرف فى اللغة لا حقيقة ولا مجازاً ؛ فحمل الكلام عليه تحريف محض أيضاً . وقد قررنا فى مواضع من القواعد الكبار أنه لا يجوز أن يكون غير الله محبوباً مراداً لذاته كما لا يجوز أن يكون غير الله موجوداً بذاته ، بل لا رب إلا الله ولا إله إلا هو المعبود الذى يستحق أن يحب لذاته ويعظم لذاته ، كمال المحبة والتعظيم .

(وكل مولود يولد على الفطرة)(٢٨٥) فإنه سبحانه فطر القلوب على أنه ليس فى محبوباتها ومراداتها ما تطمئن إليه وتنتهى إليه إلا الله وحده ، وإن كل ما أحبه المحبوب من مطعوم وملبوس ومنظور ومسموع وملموس يجد من نفسه أن قلبه يطلب شيئاً سواه ، ويحب أمراً غيره يتألهه ويصمد إليه ويطمئن إليه ويرى ما يشبهه من هذه الأجناس ، ولهذا قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾(٢٨٦) وفى الحديث الصحيح عن عياض بن حمار عن النبى ﷺ عن الله تعالى أنه قال : ﴿ **إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا** ﴾(٢٨٧) كما فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء »(٢٨٨) ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ **فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم** ﴾(٢٨٩) .

و (أيضاً) فكل ما فطرت القلوب على محبته من نعوت الكمال فالله هو المستحق له على الكمال ، وكل ما فى غيره من محبوب فهو منه سبحانه وتعالى فهو

---

(٢٨٥) أخرجه البخارى (١٢٥/٢) واللفظ له ، ومسلم (٢٠٤٧/٤) من طريق أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢٨٦) سورة الرعد : الآية ٢٨ .

(٢٨٧) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعىّ رضى الله عنه .

(٢٨٨) تقدم تخريجه برقم (٢٨٤) .

(٢٨٩) سورة الروم : الآية ٣٠ .

المستحق لأن يحب على الحقيقة والكمال . وإنكار محبة العبد لربه هو فى الحقيقة إنكار لكونه إلهاً معبوداً ، كما أن إنكار محبته لعبده يستلزم إنكار مشيئته وهو يستلزم إنكار كونه رباً خالقاً فصار إنكارها مستلزماً لإنكار كونه رب العالمين ، ولكونه إله العالمين . وهذا هو قول أهل التعطيل والجحود .

ولهذا اتفقت الأمتان قبلنا على ما عندهم من مأثور وحكم عن موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه إن أعظم الوصايا أن تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك وهذا هو حقيقة الحنيفية ملة إبراهيم التى هى أصل شريعة التوراة والإنجيل والقرآن ، وإنكار ذلك هو مأخوذ عن المشركين والصابئين أعداء إبراهيم الخليل ومن وافقهم على ذلك من متفلسف ومتكلم ومتفقه ومبتدع أخذه عن هؤلاء ؛ وظهر ذلك فى القرامطة الباطنية من الإسماعيلية ، ولهذا قال الخليل إمام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه ﴿**أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين**﴾(٢٩٠) وقال أيضا : ﴿ **لا أحب الأفلين** ﴾(٢٩١) وقال تعالى : ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾(٢٩٢) وهو السليم من الشرك .

وأما قولهم : « إنه لا مناسبة بين المحدث والقديم توجب محبته له وتمتعه بالنظر إليه » فهذا الكلام مجمل ، فإن أرادوا بالمناسبة أنه ليس بينهما توالد فهذا حق ، وإن أرادوا أنه ليس بينهما من المناسبة ما بين الناكح والمنكوح والآكل والمأكول أو نحو ذلك فهذا أيضاً حق ، وإن أرادوا أنه لا مناسبة بينهما توجب أن يكون أحدهما محباً عابداً والآخر معبوداً محبوباً فهذا هو رأس المسألة ، فالاحتجاج به مصادر على المطلوب ، ويكفى فى ذلك المنع .

ثم يقال بل لا مناسبة تقتضى المحبة الكاملة إلا المناسبة التى بين المخلوق والخالق الذى لا إله غيره الذى هو فى السماء إله وفى الأرض إله ، وله المثل الأعلى

---

(٢٩٠) سورة الشعراء : الآية ٧٥ .
(٢٩١) سورة الأنعام : الآية ٧٦ .
(٢٩٢) سورة الشعراء : الآية ٨٨ .

فى السموات والأرض . وحقيقة قول هؤلاء جحدكون الله معبوداً فى الحقيقة ، ولهذا وافق على هذه المسألة طوائف من الصوفية المتكلمين الذين ينكرون أن يكون الله محباً فى الحقيقة ، فأقروا بكونه محبوباً ومنعوا كونه محباً ؛ لأنهم تصوفوا مع ما كانوا عليه من قول أولئك المتكلمة ، فأخذوا عن الصوفية مذهبهم فى المحبة وإن كانوا قد يخلطون فيه ، وأصل إنكارها إنما هو قول المعتزلة ونحوهم من الجهمية فأما محبة الرب عبده فهم لها أشد إنكاراً . **ومنكروها قسمان :**

(**قسم**) **يتأولونها بنفس المفعولات التى يحبها العبد فيجعلون محبته نفس خلقه .**

و (**قسم**) يجعلونها نفس إرادته لتلك المفعولات . وقد بسطنا الكلام فى ذلك فى « قواعد الصفات والقدر » وليس هذا موضعها .

ومن المعلوم أنه قد دل الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة على أن الله يحب ويرضى ما أمر بفعله من واجب ومستحب ، وإن لم يكن ذلك موجوداً ، وعلى أنه قد يريد وجود أمور يبغضها ويسخطها من الأعيان والأفعال كالفسق والكفر ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **والله لا يحب الفساد** ﴾(٢٩٣) وقال تعالى : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾(٢٩٤) .

والمقصود هنا إنما هو ذكر محبة العباد لإلههم .

السماع القرآنى والسماع الشيطانى

وقد تبين أن ذلك هو أصل أعمال الإيمان ، ولم يتبين بين أحد من سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان نزاع فى ذلك ، وكانوا يحركون هذه المحبة بما شرع الله أن تحرك به من أنواع العبادات الشرعية كالعرفان الإيمانى

---

(٢٩٣) سورة البقرة : الآية ٢٠٥ .
(٢٩٤) سورة الزمر : الآية ٧ .

والسماع الفرقانى ، قال تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾[٢٩٥] إلى آخر السورة .

ثم إنه لما طال الأمد صار فى طوائف المتكلمة من المعتزلة وغيرهم من ينكر هذه المحبة .

وصار فى بعض المتصوفة من يطلب تحريكها بأنواع من (سماع الحديث[٢٩٦] كالتغبير)[٢٩٧] وسماع المكاء والتصدية ، فيسمعون من الأقوال والأشعار ما فيه تحريك جنس الحب الذى يحرك من كل قلب ما فيه من الحب بحيث يصلح لمحب الأوثان والصلبان والإخوان والأوطان والمردان والنسوان كما يصلح لمحب الرحمن ، ولكن كان الذى يحضرونه من الشيوخ يشترطون له المكان والإمكان والخلان ، وربما اشترطوا له الشيخ الذى يحرس من الشيطان ، ثم توسع فى ذلك غيرهم حتى خرجوا فيه إلى أنواع من المعاصى ، بل إلى أنواع من الفسوق ؛ بل خرج فيه طوائف إلى الكفر الصريح بحيث يتواجدون على أنواع من الأشعار التى فيها الكفر والإلحاد ، مما هو من أعظم أنواع الفساد ، وينتج ذلك لهم من الأحوال بحسبه ، كما تنتج لعباد المشركين وأهل الكتاب عباداتهم بحسبها .

والذى عليه محققو المشائخ أنه كما **قال الجنيد رحمه الله** : من تكلف السماع فتن به ، ومن صادفه السماع استراح به . ومعنى ذلك أنه لا يشرع الاجتماع لهذا السماع المحدث ، ولا يؤمر به ، ولا يتخذ ذلك ديناً ، وقربة ، فإن القرب والعبادات إنما تؤخذ عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، فكما أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا دين إلا ما شرعه الله .

---

(٢٩٥) سورة الشورى : الآية ٥٢ .

(٢٩٦) ذكر ابن الجوزى فى كتابه (تلبيس إبليس) أن المغبرة قوم يغبرون ذكر الله بدعاء وتضرع ، وقد سموا ما يطربون فيه من الشعر فى ذكر الله عز وجل تغبير . وقال : كان الشافعى يكره التغبير .

(٢٩٧) فى المخطوط : السماع كسماع التغبير .

قال الله تعالى : ﴿ **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله** ﴾(٢٩٨) ولهذا قال تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** ﴾(٢٩٩) فجعل محبتهم لله موجبة لمتابعة رسوله ، وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الله لهم .

[كلام نفيس لأُبَيّ بن كعب رضى الله عنه]

قال **أبى ابن كعب رضى الله عنه** : عليكم بالسبيل والسنة ، فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله فاقشعر جلده من مخافة الله إلا تحاتت عنه خطاياه ، كما يتحات الورق اليابس عن الشجرة ، وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبداً ، وأن اقتصاداً فى سبيل وسنة خير من اجتهاد فى خلاف سبيل وسنة ؛ فاحرصوا أن تكون أعمالكم اقتصاداً واجتهاداً على منهاج الأنبياء وسنتهم . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

فلو كان هذا مما يؤمر به ويستحب وتصلح به القلوب للمعبود المحبوب لان ذلك مما دلت الأدلة الشرعية عليه ، ومن المعلوم أنه لم يكن فى القرون الثلاثة المفضلة التى قال فيها النبى ﷺ : « خير القرون قرنى الذى بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »(٣٠٠) لا فى الحجاز ، ولا فى الشام ، ولا فى اليمن ، ولا فى العراق ، ولا فى مصر ، ولا فى خراسان أحد من أهل الخير والدين يجتمع على السماع المبتدع لصلاح القلوب ، ولهذا كرهه الأئمة كالإمام أحمد وغيره ، حتى عده الشافعى من إحداث الزنادقة حين قال : خلفت ببغداد شيئاً [أحدثه](٣٠١) الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن .

وأما ما لم يقصده الإنسان من الاستماع فلا يترتب عليه لا نهى ولا ذم باتفاق الأئمة ؛ ولهذا إنما يترتب الذم والمدح على الاستماع لا على السماع ،

---

(٢٩٨) سورة الشورى : الآية ٢١ .

(٢٩٩) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

(٣٠٠) أخرجه البخارى (٣٦٥٠) ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه .

(٣٠١) فى المخطوط : أحدثته .

فالمستمع للقرآن يثاب عليه والسامع له [من غير][302] قصد وإراده لايثاب على ذلك إذ الأعمال بالنيات . وكذلك ما ينهى عن استماعه من الملاهى لو سمعه السامع بدون قصده لم يضره ذلك ، فلو سمع السامع بيتاً يناسب بعض حاله [فحرك] ساكنه [المحمود][303] وأزعج قاطنه المحبوب أو تمثل بذلك ونحو ذلك لم يكن هذا مما ينهى عنه ، وكان المحمود الحسن حركة قلبه التى يحبها الله ورسوله إلى محبته التى تتضمن فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه الله ، كالذى اجتاز بيتاً فسمع قائلا يقول :

كل يوم تتلـــون غير هذا [بك][304] أجمل

فأخذ منه إشارة تناسب حاله ؛ فإن الإشارات من باب القياس والاعتبار وضرب الأمثال .

ومسألة « السماع » كبيرة منتشرة قد تكلمنا عليها فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن المقاصد المطلوبة للمريدين تحصل **بالسماع الإيمانى القرآنى النبوى الدينى الشرعى** الذى هو سماع النبيين ، وسماع العالمين ، وسماع العارفين ، وسماع المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ **أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم** ﴾[305] إلى قوله : ﴿ **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً** ﴾[306] إلى قوله : ﴿ **ويزيدهم خشوعا** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من**

---

(302) فى المخطوط : بدون .

(303) فى المخطوط : المحمود .

(304) فى المخطوط : بل .

(305) سورة مريم : الآية 58 .

(306) سورة الإسراء : الآية 107 .

الحق ﴾[٣٠٧] وقال تعالى : **﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾**[٣٠٨] .

وقال تعالى : **﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾**[٣٠٩] الآية .

وكما مدح المقبلين على هذا السماع فقد ذم المعرضين عنه فى مثل قوله : **﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا ﴾**[٣١٠] إلى قوله : **﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم ﴾** وقال تعالى : **﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾**[٣١١] وقال تعالى : **﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حُمُرٌ مستنفرة فرت من قسورة ﴾**[٣١٢] .

وقال تعالى : **﴿ إن شرّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾**[٣١٣] الآية وقال تعالى : **﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾**[٣١٤] وقال تعالى : **﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حُمُرٌ مستنفرة فرت من قسورة ﴾**[٣١٥] ومثل هذا كثير فى القرآن .

---

(٣٠٧) سورة المائدة : الآية ٨٣ .
(٣٠٨) سورة الأنفال : الآية ٢ .
(٣٠٩) سورة الزمر : الآية ٢٣ .
(٣١٠) سورة لقمان : الآية ٦ .
(٣١١) سورة الفرقان : الآية ٧٣ .
(٣١٢) سورة المدثر : الآية ٤٩ .
(٣١٣) سورة الأنفال : الآية ٢٢/٢٣ .
(٣١٤) سورة فصلت : الآية ٢٦ .
(٣١٥) سورة المدثر : الآية ٤٩ .

وهذا كان سماع سلف الأمة وأكابر مشائخها وأئمتها كالصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشائخ كإبراهيم بن أدهم ، والفضيل بن عياض ، وأبى سليمان الدارانى ، ومعروف الكرخى ، ويوسف بن أسباط ، وحذيفة المرعشى وأمثال هؤلاء .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لأبى موسى الأشعرى : ياأبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يسمعون ويبكون . وكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ القرآن والباقى يستمعون وقد ثبت فى الصحيح : « أن النبى ﷺ مر بأبى موسى الأشعرى وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته وقال لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود »(٣١٦) وقال : « مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك فقال: لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبراً »(٣١٧) أى لحسنته لك تحسيناً وقال ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم »(٣١٨) .

---

(٣١٦) أخرجه البخارى (٩٢/٩ - فتح) ومسلم (٧٩٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣١٧) أخرجه الحاكم (٤١٦/٣) وأبو نعيم فى الحلية (٢٥٨/١) من طريق خالد بن نافع ثنا سعيد بن أبى بردة عن أبى بردة عن أبى موسى رضى الله عنه .

قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى قلت : وليس كما قالا ، فإن فيه خالد بن نافع الأشعرى وهو ضعيف .

وأخرجه ابن سعد فى الطبقات (٨٠/٤) : من حديث أنس بن مالك : أن أبا موسى الأشعرى قام ليلة يصلى فسمع أزواج النبى ﷺ ، صوته - وكان حُلْو الصوت - فقمنْ يستمعن ، فلما أصبح قيل له إن النساء كن يستمعن ، فقال : لو علمت لحبرتكن تحبيراً ولشوقتُكنّ تشويقاً .

قال الحافظ فى الفتح (٩٣/٩) : إسناده على شرط مسلم .

(٣١٨) أخرجه البخارى معلقا مجزوماً به (٥١٨/١٣ - فتح) وأخرجه أبو داود (١٤٦٨) والنسائى (١٠١٦) وابن ماجه (١٣٤٢) والدارمى (٣٥٠١) وأحمد (٢٨٣/٤ ، ٢٨٥) وابن حبان (٦٤/٢) والحاكم (٥٧٥/١) من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه مرفوعاً .

وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع برقم ٣٥٨٠ .

وقال : « الله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته »(٣١٩) – أذنا أى استماعا – كقوله : ﴿ **وأذنت لربها وحقت** ﴾(٣٢٠) أى استمعت وقال ﷺ : « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به »(٣٢١) .

وقال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »(٣٢٢) .

ولهذا السماع من المواجيد العظيمة ، والأذواق الكريمة ، ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة مالا يتسع له خطاب ، ولا يحويه كتاب ، كما أن فى تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان مالا يحيط به بيان .

ومما ينبغى التفطن له أن الله سبحانه قال فى كتابه : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** ﴾(٣٢٣) قال طائفة من السلف ادعى قوم على عهد النبى ﷺ أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** ﴾ الآية . فبين سبحانه أن [محبته](٣٢٤) توجب اتباع الرسول ، وأن اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد ، وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوى محبة الله ، فإن هذا الباب تكثر فيه الدعاوى والاشتباه ؛ ولهذا

---

(٣١٩) أخرجه ابن ماجة (١٣٤٠) وابن حبان (٦٧/٢ - إحسان) والحاكم (٥٧١/١) من حديث فضالة بن عبيد وضعفه الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع برقم ٤٦٣٣ .

(٣٢٠) سورة الإنشقاق : الآية ٢ .

(٣٢١) أخرجه البخارى (١٧٣/٩) ومسلم (٥٤٥/١ – عبد الباقى) وأبو داود (١٤٧٣) والنسائى (١٨٠/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣٢٢) أخرجه البخارى (٤١٨/١٣ – فتح) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣٢٣) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

(٣٢٤) فى المخطوط : محبة الله .

يروى عن **ذى النون المصرى** أنهم تكلموا فى مسألة المحبة عنده فقال : اسكتوا عن هذه المسألة [لئلا] تسمعها النفوس فتدعيها .

وقال بعضهم : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حرورى ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد ، وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع فى أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله حتى قالت اليهود والنصارى ﴿ **نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾(٣٢٥) ويوجد فى مدعى المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد فى أهل الخشية ولهذا قرن الخشية بها فى قوله : ﴿ **هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود** ﴾(٣٢٦) .

وكان المشايخ المصنفون فى السنة يذكرون فى عقائدهم مجانبة من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية ، لما فى ذلك من الفساد الذى وقع فيه طوائف من المتصوفة ، وما وقع فى هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية ، حتى صار المنحرفون صنفين .

صنف يقر بحقها وباطلها .

وصنف ينكر حقها وباطلها كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه .

والصواب إنما هو الإقرار بما فيها وفى غيرها من موافقة الكتاب والسنة والإنكار لما فيها وفى غيرها من مخالفة الكتاب والسنة .

وقال تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** ﴾(٣٢٧) ، فاتباع سنة رسوله ﷺ وشريعته باطناً وظاهراً هى موجب محبة الله ، كما أن الجهاد فى سبيله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها ، كما

---

(٣٢٥) سورة المائدة : الآية ١٨ .

(٣٢٦) سورة ق : الآية ٣٢ .

(٣٢٧) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

فى الحديث : « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله »[٣٢٨] ، وفى الحديث : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الإيمان »[٣٢٩] .

وكثير ممن يدعى المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة وعن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، ويدعى مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيرة ، ولا غضب لله وهذا خلاف ما دلّ عليه الكتاب والسنة ، ولهذا فى الحديث المأثور : « يقول الله تعالى يوم القيامة أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى »[٣٣٠] فقوله أين المتحابون بجلال الله تنبيه على مافى قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه مع التحاب فيه ، وبذلك يكونون حافظين لحدوده ، دون الذين لا يحفظون حدوده لضعف الإيمان فى قلوبهم ، وهؤلاء الذين جاء فيهم الحديث « حقت محبتى للمتحابين فىّ ، وحقت محبتى للمتجالسين فىّ ، وحقت محبتى للمتزاورين فىّ ، وحقت محبتى للمتباذلين فىّ »[٣٣١] والأحاديث فى المتحابين فى الله كثيرة .

---

(٣٢٨) أخرجه الطيالسى (٣٧٨) والطبرانى فى « الكبير » (١٠٥٣١) وفى الصغير (٢٢٣/١ - ٢٢٤) والحاكم (٤٨٠/٢) عن حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً وصححه الشيخ الألبانى برقم ٢٥٤٩ .

(٣٢٩) أخرجه أبو داود (٤٦٨١) والطبرانى فى « الكبير » (٧٦١٣) (٧٧٣٧) (٧٧٣٨) والبيهقى فى الاعتقاد (١٧٨ - ١٧٩) والبغوى فى « شرح السنة » (٥٤/١٣) والشجرى فى الأمالى (١٤٠/٢ ١٥٠ ، ١٥٢) من طريق يحيى بن الحارث ، عن القاسم ابن عبد الرحمن عن أبى أمامة مرفوعاً به .

وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع برقم ٥٩٦٥ .

(٣٣٠) أخرجه مالك (٩٥٢/٢) ومسلم (٢٥٦٦) وابن المبارك فى الزهد (٧١١) والدارمى (٢٢١/٢) وأحمد (٢٣٧/٢ ، ٣٣٨) والطيالسى (٢٣٣٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣٣١) أخرجه مالك (٩٥٣/٢ - ٩٥٤) وابن سعد فى الطبقات (٥٨٦/٣ - ٥٨٧) وعبد بن حميد (١٢٥) والحاكم (١٦٩/٤) والطبرانى فى « الكبير »

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله رب العالمين »(٣٣٢) .

[أصل المحبة معرفة الله]

وأصل المحبة هو معرفة الله سبحانه وتعالى ولها أصلان :

(أحدهما) : وهو الذى يقال له محبة العامة لأجل إحسانه إلى عباده ، وهذه المحبة على هذا الأصل لا ينكرها أحد ، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها ، والله سبحانه هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة ، فإنه المتفضل بجميع النعم ، وإن جرت بواسطة ؛ إذ هو ميسر الوسائط ، ومسبب الأسباب ، ولكن هذه المحبة فى الحقيقة إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسه ، فما أحب العبد فى الحقيقة إلا نفسه وكذلك كل من أحب شيئاً لأجل إحسانه إليه فما أحب فى الحقيقة إلا نفسه ، وهذا ليس بمذموم بل محمود .

وهذه المحبة هى المشار إليها بقوله ﷺ : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لحب الله وأحبوا أهلى بحبى »(٣٣٣) والمقتصر على هذه المحبة هو لم يعرف

---

(٩٥٠) والبغوى فى « شرح السنة » من حديث معاذ رضى الله عنه .

قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

قال ابن عبد البر : إسناده صحيح .

(٣٣٢) أخرجه البخارى (١١٢/١٢ - فتح) ومسلم (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣٣٣) تقدم تخريجه برقم : ٢٥٨ .

من جهة الله ما يستوجب أنه يحبه إلا إحسانه إليه ، وهذا كما قالوا : **إن الحمد لله على « نوعين »** :

« حمد » هو شكر ، وذلك لا يكون إلا على نعمته .

و « حمد » هو مدح وثناء عليه ومحبة له وهو بما يستحقه لنفسه سبحانه ، فكذلك الحب ، فإن الأصل الثانى فيه هو محبته لما هو [له] أهل ، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله ، وما من وجه من الوجوه التى يعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه حتى جميع مفعولاته ، إذ كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ، ولهذا استحق أن يكون محموداً على كل حال ، ويستحق أن يُحمد على السراء والضراء وهذا أعلى وأكمل **وهذا حب الخاصة** .

وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظرة إلى وجهه الكريم ، ويتلذذون بذكره ومناجاته ، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم ما لا يطيقون ، وهم السابقون كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « مر النبى ﷺ بجبل يقال له : جمدان فقال : سيروا هذا جمدان ، سبق المفردون ، قالوا : يارسول الله من المفردون ؟ قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات »(٣٣٤) وفى رواية أخرى قال : « المستهترون بذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون الله يوم القيامة خفافا »(٣٣٥) والمستهتر بذكر الله يتولع به ينعم به كلف لا يفتر منه .

وفى حديث هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « قال موسى : يارب أى عبادك أحب إليك ، قال الذى يذكرنى ولا ينسانى ، قال : أى عبادك أعلم ؟ قال الذى يطلب علم الناس إلى علمه ليجد [كلمة]

(٢٣٤) أخرجه مسلم (٢٦٧٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً .

(٢٣٥) أخرجه الترمذى (٣٥٩٦) من طريق عمر بن راشد عن يحيى بن كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال الترمذى : حديث حسن غريب .

قال الشيخ الألبانى : بل هو منكر ، وانظر لزاماً السلسلة الصحيحة (٣٠٦/٣) .

تدله على هدى أو ترده عن ردى ، قال أى عبادك أحكم قال الذى يحكم على نفسه كما يحكم على غيره ويحكم لغيره كما يحكم لنفسه » فذكر فى هذا الحديث الحب والعلم والعدل وذلك جماع الخير .

ومما ينبغى التفطن له أنه لا يجوز أن يظن فى باب محبة الله تعالى ما يظن فى محبة غيره مما هو من جنس التجنى ، والهجر ، والقطيعة لغير سبب ونحو ذلك مما قد يغلط فيه طوائف من الناس ، حتى يتمثلون فى حبه بجنس ما يتمثلون به فى حب من يصد ويقطع بغير ذنب أو يبعد من يتقرب إليه ، وإن غلط فى ذلك من غلط من المصنفين فى رسائلهم حتى يكون مضمون كلامهم إقامة الحجة على الله ، بل لله الحجة البالغة .

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، ومن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعا ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة »(٣٣٦) . وفى بعض الآثار يقول الله تعالى : « أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكرى أهل زيارتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أؤيسهم من رحمتى ، وإن تابوا فأنا حبيبهم – لأن الله يحب التوابين – وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ابتليهم بالمصائب حتى أطهرهم من المعائب » .

وقد قال تعالى : ﴿ **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما** ﴾(٣٣٧) قالوا : الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره ، والهضم أن ينقص من حسنات نفسه . وقال تعالى : ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾(٣٣٨) وفى الحديث الصحيح عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ

---

(٣٣٦) أخرجه البخارى (١٣/٣٨٤ – فتح) ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣٣٧) سورة طه : الآية ١١٢ .

(٣٣٨) سورة النحل : الآية ١١٨ .

قال : يقول الله تعالى : يا عبادى ! إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى ! كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى ! كلكم جائع إلى من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم . ياعبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى ! إنكم تذنبون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب ولا أبالى فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى ! إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً يا عبادى ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص المخيط إذا غمس فى البحر ، يا عبادى ! إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[٣٣٩] .

ومن ذلك ما روى البخارى [فى صحيحه] عن شداد بن أوس قال : « قال رسول الله ﷺ سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات فى يومه دخل الجنة ، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة »[٣٤٠] .

فالعبد دائماً بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر ، وذنب منه يحتاج فيه إلى (الاستغفار) ، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائماً فإنه لا يزال يتقلب فى نعم الله وآلائه ولا يزال محتاجا إلى التوبة والاستغفار .

---

(٣٣٩) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣٤٠) أخرجه البخارى (٩٧/١١ ، ٩٨) من حديث شداد بن أوس رضى الله عنه مرفوعاً .

ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين محمد ﷺ يستغفر فى جميع الأحوال .

وقال ﷺ فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى : « أيها الناس توبوا إلى ربكم فإنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »(٣٤١) وفى صحيح مسلم أنه قال : « إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة »(٣٤٢) وقال عبد الله بن عمر : « كنا نعد لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد يقول رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور مائة مرة »(٣٤٣) .

ولهذا شرع الاستغفار فى خواتيم الأعمال . قال تعالى : ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾(٣٤٤) وقال بعضهم : أحيوا الليل بالصلاة فلما كان وقت السحر أمروا بالاستغفار ، وفى الصحيح « أن النبى ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً ، وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام »(٣٤٥) وقال تعالى: ﴿**فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام** ﴾ إلى قوله : ﴿ **واستغفروا الله إن الله غفور رحيم** ﴾(٣٤٦) وقد أمر الله نبيه بعد أن بلغ الرسالة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وأتى بما أمر الله به مما لم يصل إليه أحد غيره فقال تعالى : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت**

---

(٣٤١) أخرجه البخارى (١١/١٠١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً بلفظ « والله إنى لأستغفر الله وأتوبُ إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

(٣٤٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) عن الأغر المزنى وكانت له صحبة أن رسول الله ﷺ قال : فذكره .

(٣٤٣) أخرجه أبو داود (١٥١٦) والترمذى (٣٤٣٠) وابن ماجة (٣٨١٤) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم (١٣٤٢) .

(٣٤٤) سورة آل عمران : الآية ١٧ .

(٣٤٥) أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣٤٦) سورة البقرة : الآية ١٩٨ .

الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾[٣٤٧] .

ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار كما قال تعالى : ﴿ **الر ، كتاب أحكمت آيته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً** ﴾[٣٤٨] الآية . وقال تعالى : ﴿ **فاستقيموا إليه واستغفروه** ﴾[٣٤٩] وقال تعالى : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾[٣٥٠] .

ولهذا جاء فى الحديث « يقول الشيطان أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار »[٣٥١] وقد قال يونس : ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾[٣٥٢] وكان النبى ﷺ : « إذا ركب دابته يحمد الله ثم يكبر ثلاثاً ويقول : لا إله إلا أنت سبحانك ظلمت نفسى فاغفر لى »[٣٥٣] وكفارة المجلس التى كان يختم بها المجلس « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليه »[٣٥٤] والله أعلم وصلى الله على محمد وسلم .

(٣٤٧) سورة النصر .

(٣٤٨) أول سورة هود .

(٣٤٩) سورة فصلت : الآية ٦ .

(٣٥٠) سورة محمد : الآية ١٩ .

(٣٥١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (١٣٦) وابن أبى عاصم فى السنة (٧) من حديث أبى بكر رضى الله عنه مرفوعاً بلفظ (عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فأكثروا منهُما فإن إبليس قال : أهلكت الناس بالذنوب ، فأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار .....) .

قال الألبانى فى ظلال الجنة (١/١٠) : إسناده موضوع .

(٣٥٢) سورة الأنبياء : الآية ٨٧ .

(٣٥٣) أحرحه أبو داود (٢٦٠٢) والترمذى (٣٤٤٦) من حدبث على بن أبى طالب رضى الله عنه . وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود برقم ٢٢٦٧ .

(٣٥٤) أحرجه أبو داود (٤٨٥٩) والترمذى (٣٤٣٣) والدارمى (٢٦٥٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه صححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى برقم ٢٧٣٠ .

فهرس كتاب « أعمال القلوب »
لابن تيمية

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٩٦١ / ١٩٩٠

مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت ٣٤٢٧٢١ - ص.ب ٢٣٠
تلكس ٢٤٠٠٤ DWFA UN